

خالد محمد خالد

# النسانيات



Ketabton.com





كل الحقوق  
محفوظة

Copyright  
All rights reserved

---

المؤتمن  
للتشریف والتوزیع

---

القاهرة . مصر  
٥ شارع الشیخ ریحان - عابدین

Tel: (00202) 7958215-7946109

Fax: (00202) 5082233

Email:  
elmokatam@hotmail.com

رقم الإيداع ١٤٨٧٢ / ٢٠٠٤

I.S.B.N.

977 - 5732 - 42 - 5



## الإهدا.

- يا من جدت الحياة، فأعطيت ولم تأخذ.

- يا من قدست الوجود كلّه، ورعيت قضية الإنسان.

- يا من زكّيت سيادة العقل، ونهنت غريرة القطيع.

- يا من هيأك توقك لنكون سيداً "فوق" الجميع فعشت

واحداً "بين" الجميع..!!

- يا من أعطيت القدوة، وضررت المثل وعبدت  
الطريق.

- يا لها الرسول، والآب، والأخ، والصديق.. إليك  
أهدى هذه الصنحات في حياء من يعلم أنه بخافر قدره  
هذا الإهدا..





# مِصَاتَرُ الْأَحَادِيثِ

الصحيحان لبلايين البخاري ومسلم

مسند الإمام أحمد لإمام أحمد بن حنبل

الترغيب والترهيب للحافظ المنذري

تيسير الوصول إلى أحاديث الرسول

للحافظ ابن الدبيع الشيباني

رياض الصالحين للإمام النووي

طبقات الكبرى للإمام ابن سعد



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## مُقْدِمةٌ

لو لم يكن "محمد" "رسولاً" لكان "إنساناً" في مستوى الرسول..!!

ولو لم يتلقَّ الأمرَ من ربِّه: «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلَّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ» لتلقاءَ  
من ذاتِ نفسه، يأيها الإنسان بلّغ ما يعتملُ في ضميرك..

ذلك أنَّ "محمدًا الإنسان" جاوزَ النُّضُجَ وارتقاوه كُلَّ تَخُومِ الذاتِ  
وحدودها، ولم يكن ثمةَ سبيلاً لوقف انتشار هذا النضج، وهذا الارتفاع خارجِ  
الذاتِ، وخارجِ البيئة.. بل خارج كل زمان، وكل مكان..

إن عظمته التي فرضت نفسها، ونادت إليها ولاء المؤمنين، وإعجابِ  
المعرضين..

عظمته، التي لبست زهاء ألف وأربعينَ عاماً، وستظل دوّماً، ترسل ضياءَها  
وسناها.. وتثبتُ في ضمير الزَّمن رشدَها، وبُتهاها.

عظمته هذه، تتبعُ - أول ما تتبعُ - من إنسانية "محمد" .. من الطريقة التي  
كونَ بها نفسه، ووجودَه، وعقله تحت عين الله ورعايته..

ومن الموقف الذي اختاره والتزمَّه، تجاه الكون، والناس والحياة..

والحق أنَّ "محمدًا الإنسان" شيءٌ باهر.. فإذا التقى به "محمد الرسول" فإنَّ  
عظمته آتَى ذلك تجاوزَ كل حدود الثناء..!

ولكن، لماذا أضعَ "الإنسان" مقابلَ "الرسول" ..؟؟ أو ليس "الرسول"

إنسانًا..؟؟

## — انسانيات —

بلى.. إن "الرسول" إنسان.

وإنما أريد بصفة "الإنسان" هنا، التنبية إلى أنني أركز الحديث على الطابع البشري المخصوص الذي يشتراك فيه "محمد" مع غيره من الناس.. والذى تفوق فيه على من سواه من الناس.

فهذا الطابع البشري بكل انتفاليات، ويساطعه، وتلقائته - هو الذي يُيهجنا ويَبهرنا، لأنه من صنع واحد منا.. واحد مثلنا.. ومن ثم، فهو يمنحك ثقة بأنفسنا، واحتراماً عظيماً لبشريتنا التي تنجب مثل هذا الطراز الرفيع من الخلق..

\* \* \*

ولست أدرى، هل هذا كتاب عن "محمد" أو هو كتاب لـ "محمد" .. عليه صلاة الله وسلامه؟

فلقد بدأت التفكير في الكتاب معتزماً أن أتبع أحاديث "الرسول" وموافقه، وأختار منها ما يكون الصورة التي أريدها.. صورة "محمد" الإنسان، دون أن أقحم نفسي على هذه المختارات مدركاً أن مجرد تنسيقها، ووضع كل حديث في مكانه من الصورة، سيكون فصل الخطاب..

بيد أنني لم أكُن أبداً، حتى وجدت أحاديث "الرسول" عليه السلام وموافقه، تعكس على فِكرة خبئها النفيض، وحكمتها المسيرة..

وهكذا سمحت لنفسي أن أقفوا أثراها، وأستبط منها معالم النموذج الذي يشكل على نحو جليل، إنسانيات "محمد" الباهرة..

وسمحت لنفسي كذلك أن أسطر ما أفاءه على هذه الأحاديث والمواضف من فهم ومعرفة..

ولقد آثرت الاقتصار في الاستشهاد، على أحاديث الرسول وتصوفاته؛ لأنها أدل على إنسانية أصحابها؛ ولأنها تصور - تماماً - تلقائية العمل والتزوع لديه.

- هنالك ترى الإنسان الحانى، الذى لا ثُقلت من قلبه الذكى شاردةً من آمال الناس وألامهم، إلا لبّاها.. ورعاها.. وأعطتها من ذاتِ نفسه كلًّ اهتمام، وتأييد..
- نرى الإنسان الذى يكتب للملوك الأرض، طالباً إليهم أن يبنّدوا غرورهم الباطل.. ثم يُصغى فى حفاوة ورضاء، لأعرابى حافى القدمين يقول فى جهالة: "اعدل يا محمد، فليس المال مالك ولا مال أبيك.." !!!
- ترى العابد الأوّاب، الذى يقف فى صلاته، يتلو سورة طويلة من القرآن فى انتشاء وغبطة، لا يُقايض عليهم بملء الأرض تيجاناً وذهبًا.. ثم لا يلبث أن يسمع بكاء طفل رضيع، كانت أمّه تصلى خلف "الرسول" فى المسجد: فيضحى بغضته الكبرى، وحُبُوره الجياش وينهى صلاته على عجل، رحمة بالرضيع الذى يبكي وينادى أمّه بيّكائه.. !!!
- نرى الإنسان الذى وقف أمامه - صاغرين - جميع الذين شنوا عليه الحرب والبغضاء، وملأوا بجثمان عمّه الشهيد "حزة" ومضغوّوا كبدّه فى وحشية ضاربة؛ فيقول لهم: "اذهبو؛ فأنتم الطلقاء" .. !!!
- نرى الإنسان الذى يجمع الخطب لأصحابه فى بعض أسفارهم ليستوقدوا ناراً تنضح لهم الطعام.. !!
- والذى يرتجف حين يصر دابة تحمل على ظهرها أكثر مما تطيق !!
- والذى يخلب شاته.. ويُخيط ثوبه.. ويُخصف نعله.. !!



• والذى يقف بين الناس خطيباً فيقول: "من كنت جَلدتُ له ظهراً،  
فهذا ظهرى فليقتدُ منه" !! ..

أجل.. نرى الإنسان - أبهى، وأنقى، وأسمى ما يكون الإنسان.

\* \* \*

فلنقترب فى تهليل.. ولنقرأ فى أناة..  
واعلموا يا من تطالعون الآن هذا الكتاب - أنكم تعيشون لحظات مُترعة  
بغبطة الحياة، مع إنسان ورسول، رفع الله به قدر الحياة..



## الفصل الأول

# الرَّحْمَةُ مِنْ حَنْتِهِ

إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَأةٌ



يتيم...

جعل الله الْيُتُّمَ له مهداً..

وَحِينَ كَانَ أَتْرَابَهُ يَلْوِذُونَ بِآبَاءِهِمْ، وَيَرْحُونَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ كَطِيورَ الْحَدِيقَةِ..

كَانَ "مُحَمَّدٌ" يَقْلُبُ وَجْهَهُ فِي السَّمَاوَاتِ...

لَمْ يَقْلُ قَطْ يَا أَبِي.. لَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَبٌ يَدْعُوهُ؟ وَلَكِنَّهُ قَالَ كَثِيرًا، وَقَالَ

دَائِمًا: يَا رَبِّي...!!

أَىٰ سُرٌ فِي الْيَتَمِ حَتَّىٰ يَخْتَارِهِ اللَّهُ لِأَعْظَمِ حَامِلِيْنَ لِكَلْمَتِهِ، مُبْلِغِيْنَ لِرَسَالَتِهِ -

الْمَسِيحُ. وَمُحَمَّدٌ...؟!!

أَجَلُ، فَالْمَسِيحُ أَيْضًا كَانَ يَتِيمًا، وَحِينَ جَاءَ الدُّنْيَا لَمْ يَجِدْ لَهُ آبًا.. بَلْ لَقِدْ أَنْبَىَ  
أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَبٌ عَلَىِ الْإِطْلَاقِ.

وَحِينَ كَانَ أَتْرَابَهُ كَذَلِكَ يَبَاهُونَ بِآبَائِهِمْ، ذَهَبَ هُوَ يَبَاهِ بِخَيْرِ أَبٍ، فَيُشَيرُ  
بِكَفِهِ الْمُضِيَّةِ إِلَىِ فَوْقِ..

وَيَقُولُ: - أَبِي.. الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ..!!

ثُرِىٰ، هَلْ اخْتَارَ اللَّهُ لَهُمَا الْيَتَمَ، لِيَفْجُرُ الرَّحْمَةَ فِي نُفُسِيهِمَا تَفْجِيرًا..؟  
رَبِّيَا.. وَلَنْعَدْ لِحَدِيشَتِنَا..

وَلَنَمْضِ مَعَ "مُحَمَّدٍ" فِي رَحْمَتِهِ. وَإِنَّهَا لِرَحْمَةِ تَبَهِرِ الْأَلْبَابِ.

وَالرَّحْمَةُ عِنْدَ "مُحَمَّدٍ" لَمْ تَكُنْ "رَدًّا فَعْلًا" لِيَتَمِّمَهُ.. بَلْ كَانَتْ "فَعْلًا" مُتَسْقًا مَعَ  
وَجُودِهِ الَّذِي اسْتَهَلَ يَتِيمًا.



## انسانيات

إنها رحمة الأقوياء الباذلين، لا رحمة الضعفاء البائسين.  
ومن أقوى بين الأحياء جيئاً - من اليتيم الذي يواجه الوجود وحده..  
وينهض بالعبء وحده.. ويختفي من حياته "العائل"؛ ليظهر فيها "الرجل" ..  
وليملا الفراغ كله، وينمو تلقائياً كالشجرة الباسقة، ويستمد من ذاته أبؤة ذاته؟؟!!  
أجل، إن اليتيم لأجل مصادر العظمة شأنها حين يواتي طفلًا يحمل  
استعداداً عظيماً..

ولقد كان محمد كذلك..  
و"محمد" القويُّ يمارس الرحمة ممارسة مؤمن بها، متضمخ بعطرها،  
خليق من عجيتها.

وإنه - عليه صلاة الله وسلامه - ليهتف بها هُتافاً كله ذكاء وحكمة.  
وحين تُطوف حول أحاديثه عن الرحمة، وموافقه مع الرحمة، نجد شيئاً يشبه  
المعادلات الرياضية. فهو لا يزجي عن الرحمة مجرد حديث ينعش العاطفة أو  
يسعد في العزاء..

إنما يتحدث عنها حديث خبير بقيمتها، ويتبع كل مواطن الحاجة إليها،  
وكأنه وهو يحيط بها من كل جانب، يضع لها دستوراً وقانوناً..

\* \* \*

"الراحمون يرحمهم الرحمن.."

"ارحموا من في الأرض، يرحمكم من في السماء.."

هكذا قال "محمد" ...

ولكن من هم الراحمون؟؟  
إن فاقد الشيء لا يعطيه.

## الرَّحْمَةُ مُلْكُه

١٧

والذى لا يستطيع أن يرحم نفسه لا يستطيع أبداً أن يرحم غيره...  
ومن هنا يبدأ الحديث عن الرحمة، ويبدأ الحضُّ عليها. وفي براعة الصدق  
الذى يضىء شخصية "محمد"، ويملأها نوراً - يواجه عليه السلام رحمة النفس  
والذات مواجهة حاسمة، وينختار لهذا زاوية ما كان يُظن أبداً أنه يختارها.  
فمحمد رسول، عابد، جاء ليرفع راية العبادة، ويسوق الناس إليها.  
أفيختار العبادة بالذات لينشئ بينها وبين الرحمة مفاضلة..؟؟..  
أجل، لقد فعلها الإنسان العظيم، وأعلن أن الرحمة خير من الإفراط في  
العبادة وأذكي.

"خرج رسول الله ﷺ عام الفتح إلى مكة في رمضان حتى بلغ  
موضعًا يُدعى . كراع الغميم . فصام، وصام الناس.. ولما رأى بعض  
الناس قد شقّ عليهم الصيام بسبب وعثاء السفر دعا بقدح من ماء،  
فرفعه حتى نظر الناس إليه، ثم شرب..

ولما قيل له: إن بعض الناس لا يزال صائمًا. قال: أولئك  
العصاة...!!"

\* \* \*

ويحدثنا جابر أيضًا:

"كان النبي ﷺ في سفر، فرأى رجلاً قد اجتمع عليه الناس،  
وظللَ عليه. فقال: ما باله؟ قالوا: رجل صائم.. فقال عليه السلام:  
ليس من البر أن تصوموا في السفر، وعليكم برخصة الله التي  
رخص لكم، فاقبلوها".

إن رحمة النفس تفوق في اعتبار "محمد" كل شيء.. فهؤلاء الذين صاموا



في سفر، وأدركهم العياء فلم يخلوا عن صيامهم، يدمغهم رسول الله بالعصيان، لأنهم حولوا العبادة إلى تعذيب، ولأنهم تخلوا عن أعظم فضائل الإنسان - ألا وهي الرحمة.. لاسيما الرحمة بالنفس، واستبقاء عافيتها وقوتها..

\* \* \*

ولقد ذهب إلى بيت النبي ذات يوم نفر من أصحابه يسألون عن عبادته، فلما أخبروا، بدا عليهم كأنهم <sup>يَقَالُوا</sup> هـ، فقالوا: وأين نحن من النبي عليه السلام.. لقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر..

"قال أحدهم، أما أنا، فإني أصلى الليل أبداً، ولا أنام منه شيئاً.

وقال آخر: وأنا أصوم الدهر ولا أفتر أبداً..

وقال ثالث: وأنا اعتزل النساء، فلا أتزوج أبداً.."

أين حقوق النفس البشرية في كل هذا؟ وأين واجب الرحمة بها؟؟؟  
إن "محمدًا" عنده كلمة الفصل، وسوف يحمي الرحمة من كل عدوان، حتى لو كان عدوان المبالغة في العبادة والفضيلة!

وهكذا، لا يكاد نبا هؤلاء يبلغه حتى يسألهم:

"أنتم القوم الذين قلتم كذا، وكذا؟ أما والله إنّي لأخشاكم الله، وأتقاكم له، لكنني أصوم، وأفتر وأصلى، وأرقد فمن رغب عن سنتي فليس مني.."

\* \* \*

ويبلغه ذات مرة أن عبد الله بن عمرو بن العاص يصوم دائمًا، ويقوم الليل كله، فيقول له:

"بلغنى أنك تصوم النهار، وتقوم الليل، فلا تفعل، فإن لجسدي

## الحلمة محبة

١٩

"عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً، ولزوجك عليك حقاً. صم، وأفطر.."

"صم من كل شهر ثلاثة أيام. فذلك صوم الدهر."

"قال: يا رسول الله إني أطيق أفضل من ذلك."

"قال: فصم يوماً، وأفطر يوماً. وذلك صيام داود."

"وهو أعدل الصيام.."

"قال يا رسول الله إني أطيق أفضل من ذلك.."

"قال رسول الله: لا أفضل من ذلك.."

ويحكي الرسول نفسه، عن نفسه فيقول:

"إني لأقوم إلى الصلاة وأريد أن أطول فيها. فأسمع بكاء

الصبي، فأتجاوز في صلاتي. كراهيّة أن أشُقّ على أمه.."

لا شيء يكشف عن قيمة الرحمة عند محمد عليه السلام، مثل وضعها  
والعبادة في كفتي ميزان..

عندئذ ترجح كفة الرحمة رجحاناً، أى رُجحان..!! انظروا..

هل تبصرون هذا الرجل الم قبل، مهرولاً الخطى إلى رسول الله، يغشاه الفرح،  
وتغمره البهجة..؟ إنه قادم بيايع نبيه على الهجرة معه وعلى الجهد في سبيل الله  
تحت رايته.

فاسمعوا حوار "محمد" له:

"هل من والديك أحد حى..؟؟"

"قال الرجل: نعم، كلّاهما حى.."

"قال "الرسول": فارجع إلى والديك، وأحسن صحبتهما.."

وهذا رجل آخر، جاء إلى "محمد" يسعى ويقول:

## انسانيات

يا رسول الله، جئت أبأيتك على الهجرة، وتركت أبوئبيكىان..  
فيجيبه الرسول:

"ارجع إليهما، فأضحكهما كما أبكيتهم.."

وثالث يسأل:

يا رسول الله، إنني أشتهر بالجهاد، ولا أقدر عليه.

فيقول له "الرسول": هل بقى من والديك أحد..؟

يقول الرجل: نعم....

فيقول "محمد" عليه الصلاة والسلام:  
"قابل الله في برهما.. فإذا فعلت ذلك فأنت حاج، ومعتمر،  
ومُجاهد.."

\* \* \*

إن بسمة تعلو شفتي أب حنون، وتكسو وجه أم متلهفة، لا تباع عند  
"محمد" بشمن، حتى حين يكون الثمن جهاداً يثبت دعوته، وينشر في الآفاق  
البعيدة رايته.

وهكذا رأينا يرد إلى والدين داعمين، ابنا هما جاء يبأيه على الجهاد،  
وسمعناه يقول له تلك الآية الباهرة.

"ارجع إليهما، فأضحكهما - كما أبكيتهم.."

إن رحمة النفس تتم عند "محمد" برحمة الوالدين وبرهما، لأنهما مصدر هذه  
النفس ووعاؤها.

وإذا كانت العبادة تحول إلى تعذيب، حين تجيء على حساب رحمة النفس..  
فإنها - أعني العبادة - تحول إلى عقوق. إذانت على حساب رحمة الوالدين.

\* \* \*

## الرَّحْمَةُ مُلْكُه

٢١

ثم تنتشر الرحمة لدى "محمد" عليه السلام - حتى يغطى دفؤها كل مقرور.  
وحتى تشمل الأحياء جميعاً من إنسان وحيوان.

وفي المواطن التي تعظم فيها الحاجة إليها، نجد الرسول يركز إلهاجها عليها..  
 فهو - مثلاً - إذا حث على الرحمة بالطفل يركز بصورة أشد، على الرحمة بالطفل  
اليتيم، أو الطفل القيط.

وإذا حث على الرحمة بالحيوان، وهو يعمل، يركز بصورة أوفى، على الرحمة  
بالحيوان وهو يُذبح.

وهكذا يدور قلبه الكبير مع دواعي الرحمة حيث تدور!  
والرحمة عند "محمد" ليست نافلة من نوافل البر. بل واجباً من واجبات  
الرشد؛ وبعنة من ثبعات الحياة.

وهي لهذا تُعبّر عن نفسها في عديد من صور الخير، والمشاركة،  
والأعمال النافعة.

يقول أبو ذر، رضي الله عنه:

"سألت رسول الله ﷺ: ماذا يُنجي العبد من النار؟ قال: الإيمان  
بالله. قلت يا نبي الله: مع الإيمان عمل؟ قال: أن تُعطى مما رزقك الله.  
قلت يا نبي الله، فإن كان فقيراً لا يجد ما يعطى؟ قال: يأمر  
بالمعروف وينهى عن المنكر.. قلت: فإن كان لا يستطيع أن يأمر  
بالمعروف، ولا يستطيع أن ينهى عن المنكر؟ قال: فليعن الآخر. قلت  
يا رسول الله، أرأيت إن كان لا يحسن أن يصنع؟ قال: فليعن  
مظلوماً. قلت: فإن كان ضعيفاً لا يستطيع أن يُعين مظلوماً؟ قال ما  
تريد أن تترك لصاحبك من خير ليمسك أذاء عن الناس. قلت يا



رسول الله. أو إن فعل هذا يدخل الجنة؟ قال: ما من عبد مؤمن يصيب حصلة من هذه الخصال إلا أخذت بيده حتى تدخله الجنة.."

إنا أن نتصور النار، على أنها مُنتهى ما ينزل بالشّرير من عذاب نفسى أو مادى.

ونتصور الجنة على أنها قِمَة ما يناله الخَيْر من مثوبة نفسية أو مادية، أو هُما معًا..

وفي هذا الحديث نجد الرسول ﷺ قد ساق من أعمال الرحمة والخير عدًّا غير قليل.. ولم يجعل قِمَة الثواب وقفا على من يفعلها جيًعا، بل إن واحدة منها تكفى.

أجل، واحدة لا غير - قادرة على أن تأخذ بيد صاحبها إلى تلك القمة. وهذا هو معنى العبارة الجليلة التي جاءت في ختام الحديث.

"ما من عبد مؤمن، يُصيِّب حصلة من هذه الخصال، إلا أخذت بيده، حتى تدخله الجنة.."

ومثل هذا، نبأ الأعرابي الذي جاءه يوماً يسأله عملاً يقربه من الجنة ويياعده من النار. فقال عليه السلام:

"تقول العدل، وتعطى الفضل.. قال: والله لا أستطيع أن أقول العدل كل ساعة، وما أستطيع أن أعطى الفضل.."

قال: فتطعم الطعام، وتُفتشي السلام.. قال: هذه أيضًا شديدة.. قال: فهل لك إبل؟ قال: نعم. قال "الرسول": فانظر إلى بعير من إبلك وسقاء.. ثم اعمد إلى أهل بيتك لا يشربون الماء إلا غيًراً - أى نادرًا - فاسقطهم، فلعلك لا يهلك بعيرك، ولا ينخرق سقاوئك حتى تجب لك الجنة.."

## الرّحمة مُهْبَة

٢٣

إن الرحمة في أخف تكاليفها، وفي أيسر صورها تكتنف من طريق المجهول كل الكوارث المخبأة، وتغسل عن الإنسان كل أوزاره، وتضع عنه كل أثقاله.. هكذا يعلمنا "محمد" ﷺ وهو يخضنا على الرحمة ويدعونا إليها. وإنه - عليه الصلاة والسلام - ليرسم هذا المعنى في لوحة فاتنة، ويوجزه في قصة قصيرة - تتجلى فيها مع صدق الرسول، عبرية الفنان.

فلنسمعه يقول:

"تَعْبَدُ عَابِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَعَبَدَ اللَّهُ فِي صُومَعَةِ سَتِينَ عَامًا..  
وَفِي يَوْمٍ، أَمْطَرَتِ الْأَرْضُ، فَأَخْضَرَتْ. فَأَشَرَفَ الرَّاهِبُ مِنْ  
صُومَعَتِهِ وَقَالَ: لَوْ نَزَلْتَ، فَذَكَرْتَ اللَّهَ وَازْدَدْتَ خَيْرًا. فَنَزَلَ وَمَعَهُ  
رَغِيفٌ أَوْ رَغِيفَانِ.. فَبَيْنَمَا هُوَ فِي الْأَرْضِ لَقِيَتْهُ امْرَأَةٌ: فَلَمْ يَزَلْ يَكْلِمُهَا  
وَتَكَلَّمُهُ حَتَّى غَشِيَّهَا ثُمَّ أَغْمَى عَلَيْهِ، فَنَزَلَ الْفَدِيرُ يَسْتَحِمُ، فَجَاءَهُ  
سَائِلٌ، فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ أَنْ يَأْخُذَ الرَّغِيفَيْنِ ثُمَّ مَاتَ فَوْزِنَتْ عِبَادَةُ سَتِينَ سَنَةً  
بِتِلْكَ الرَّزِّيَّةِ. فَرَجَحَتِ الرَّزِّيَّةُ بِحَسَنَاتِهِ، ثُمَّ وُضِعَ الرَّغِيفَانُ مَعَ حَسَنَاتِهِ،  
فَرَجَحَتِ حَسَنَاتِهِ. فَغَفَرَ لَهُ!

يا "محمد" من إنسان شعفته الرحمة حبا، فأعلى مكانها على هذا النحو  
الجليل!!!

إن هذه اللوحة العذبة شبيهة بأختها التي صور "الرسول" ﷺ فيها مصير  
البغى التي ظفرت من الله بالتوبة، والشكران، والجننة، لمجرد كونها رحمت كلّا  
ظمآن، وهيأت له الشراب...!!

فهل ثمة فتون بالرحمة وإيمان. يعدل هذا الفتون وهذا الإيمان..؟  
إن الله يزن رحمة الناس بعضهم ببعض بالروح المتبدى في الرحمة  
وليس بحجمها.



## انسانيات

وكل صناعة مهما تكن يسيرة، تدفع عن صاحبها وبالاً كبيراً.. وكما قال الرسول ﷺ:

"صنائع المعروف، تقى مصارع السوء..."

وللنظر الآن مشهدًا آخر يغرينا الرسول ﷺ فيه بالرحمة:

أتى الله بعدد من عباده: كان قد آتاه مالاً. فقال له ماذا عملت في الدنيا؟ فقال: يا رب آتيتني مالاً؛ فكنت أباعي الناس، وكان من خلقى الجواز أى التسامح. فكنت أيسر على الموسر. وأنظر المعسر. فقال الله تعالى: أنا أحق بذلك منك.

"تجاوزوا عن عبدي.."

"يقول "الرسول" ﷺ في ختام الحديث: وأدخله الله الجنة، ويكرر "الرسول" النبأ نفسه في صورة أخرى فيقول:

"إن رجلاً لم ي عمل خيراً قط، وكان يُدَافِنُ النَّاسَ، فيقول لرسوله: خذ ما تيسر، واترك ما عسر، وتجاوز، لعل الله يتتجاوز عنا فلما هلك، قال الله له: هل عملت خيراً قط؟ قال: لا.. إلا أنه كان لي غلام، وكانت أداین الناس، فإذا بعثته "يتقاضى"، قلت له: خذ ما تيسر، واترك ما عسر، تجاوز لعل الله يتتجاوز عنا. قال الله له: قد تجاوزت عنك..!!"

ألم أقل لكم: إن هيام "محمد" بالرحمة لا يعدل هيام؟  
ها هو ذا - عليه السلام - يتصور إنساناً لم ي العمل خيراً قط في حياته إلا أنه كان يرحم المدين، فيصبر عليه ولا يتعجله الوفاء.  
وها هو ذا يجعل مثوبة هذا الرجل المغفرة الشاملة ويرجو له عند الله

## الرَّحْمَةُ مَلْجَأُهُ

٢٥

الرحمة الواسعة.

لقد ذكرنا من قبل أن "الرسول" يركز على الرحمة تركيزاً شديداً، كلما اشتدت الحاجة إليها.

ونحن الآن في مقام، الحاجة فيه إلى الرحمة بالغة..

مقام أولئك المساكين الذين تسوقهم ضرورات العيش إلى الدين، ثم تعجزهم ضحالة الدخل عن السداد، فيعانون من أجل الديون هم الليل، وذل النهار.

هؤلاء يتقدم "محمد" البار ليأسو جراحهم.

إنه لا يملك أن يقول للدائن: تنازل عن حقك، "محمد" عليه السلام - خير من يصون الحقوق.

ولكنه يملك أن يهب الدائن شفاعته، وقلبه، وحبه - إذا هو أرجأ مدينه، وصبر عليه حتى تخين ساعة فرج قريب.  
وفي هذا، قال ما تلونا من قبل، وقال كثيراً:

"من يَسِّرْ عَلَى مَعْسِرٍ فِي الدُّنْيَا، يَسِّرْ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا،  
وَالآخِرَةِ.. وَاللَّهُ فِي عُونَ الْعَبْدِ، مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عُونَ أَخِيهِ، مِنْ  
أَنْظَرَ مَعْسِرًا، أَوْ وَضَعَ لَهُ - أَى تَنَازَلَ عَنْ جُزءٍ مِّنَ الدِّينِ - أَظْلَلَ اللَّهُ يَوْمَ  
الْقِيَامَةِ تَحْتَ ظَلِّ عَرْشِهِ، يَوْمَ لَا ظَلَّ إِلَّا ظَلَّهُ.."

"من أراد أن تستجاب دعوته، وأن تكشف كريته. فليفرج عن  
معسر.."

\* \* \*

"أَيُّكُمْ يُسْرِهُ أَنْ يَقِيهِ اللَّهُ عَزَّ وَجْلَ مَنْ فَيْحَ جَهَنَّمْ؟ قَلْنَا يَا رَسُولَ  
اللَّهِ، كَلَّا يُسْرِهِ.. قَالَ: مَنْ أَنْظَرَ مَعْسِرًا أَوْ وَضَعَ لَهُ وَقَاهَ اللَّهُ عَزَّ وَجْلَ



"من فيح جهنم.."

وي الفلسف "الرسول" العظيم ﷺ الرحمة فلسفة تسمو بها فوق الفضائل الإنسانية كلها - وتجعل كل عمل رحيم عبادة من أزكي العبادات.

ف عند "محمد" عليه السلام أن أعمالنا الرحيمة التي نسديها للأخرين إنما يراها الله قربات توجه إليه ذاته.. فإذا زرت مريضاً، فأنت إنما تزور الله.. وإذا أطعمت جائعاً، فكأنك تطعم الله..

يقول الرسول ﷺ:

"إن الله عز وجل يقول يوم القيمة يا بن آدم: مرضتُ فلم تُعْدُنِي."

قال يا رب: كيف أعودك؟ وأنت رب العالمين؟؟

قال: أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تُعْده، أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده؟؟ يا بن آدم: استطعْمتك؛ فلم تطعْمني. قال يا رب: كيف أطعْمك؟ وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أنه استطعْمك عبدي فلان فلم تطعْمه. أما علمت أنك لو أطعْمته لوجدت ذلك عندي؟ يا بن آدم: استسقْيتك، فلم تسقْنى. قال يا رب: وكيف أسقِيك، وأنت رب العالمين؟ قال: استسقاك عبدي فلان؛ فلم تسقه. أما إنك لو سقْيته لوجدت ذلك عندي...؟؟"

\* \* \*

والناس يخافون.. وحياتهم ملأى بالمخاوف التي لا تؤذن بانتهاء وأعظم رحمة تُسْدِي إليهم، تحريرهم من الخوف قدر المستطاع. إن الخوف غول يلتئم سكينة الناس وأمنهم.

والفزع حين يخلع الأفئدة، وتصير هواء - لا يبقى للناس ما يمسك عليهم

## الرَّحْمَةُ مُهْبَتٌ

الإيمان بالحياة.. وحين يفقدون إيمانهم بالحياة يستسلمون للضمور، والفتور، واللامبالاة.

ومم يخاف الناس..؟؟

إنهم يخافون الله.

ويخافون أنفسهم - أعني، يخاف بعضهم بعضاً..

\* \* \*

أما الخوف من الله: فما كان "محمد" وهو يدعو إلى فضائل يشق على الأنفس فعلها، أن يستبعده من بين وسائل تربيته. لا سيما في تلك الأزمان البعيدة التي كان الخوف فيها من أهم وسائل الزجر والتربية والتقويم. ولكن "محمدًا" استطاع أن يقيم إلى جوار التخويف من عذاب الله، الرجاء في رحمته..

ولو أنها أحطنا بكل الأحاديث التي بث خلالها الأمل العظيم في رحمة الله، لرأينا محاولة عظمى وناجحة لتنحية الخوف وقهره.

لقد أفاض الرسول عليه الصلاة والسلام في تصوير رحمة الله وفي الحث على أن يكون الرجاء فيه والحب له، أساس كل علاقة بيننا وبينه سبحانه وتعالى. وفي رأيي أن "محمدًا" بتركيزه على الرجاء في الله، إنما كان يصطنع منه بدليلا للخوف.. بحيث يبلغ الناس آخر الأمر المكانة النفسية والروحية التي يتفوقون فيها على الخوف الديني، وتصلهم بالله عندها أو اصر الحب، والرجاء، والإخلاص.

إن رحمة "محمد" تتجلى، وهو يقول لنا: لا تخافوا.. إن ربكم رءوف رحيم. وفي تبشيره بالرجاء، أعطانا بكلماته الحلوة، الرطيبة، المضيئة كل وسائل الإقناع والطمأنينة..



فهو يأمر بالرجاء تارة و يجعل الإسراف في الخوف من الله إثماً، تارة أخرى.. ويضرب لنا الأمثال بعقرية إنسان عظيم.. إن ملء الأرض آثاماً وخطايا؛ ليتبدّل مِرْقاً، ويدهّب هباء أمام ذرة واحدة من رحمة الله.

اقرءوا هذا الحديث:

"أذنب عبد ذنباً؛ فقال: اللهم اغفر لى ذنبي. فقال الله تبارك وتعالى: علم عبدى أن له ربًّا يغفر ذنبه؟ قد غفرت له.. ثم عاد فأذنب. فقال: أى رب: اغفر لى ذنبي، فقال الله تبارك وتعالى: علم عبدى أن له ربًّا يغفر ذنبه؟ قد غفرت له.. ثم عاد فأذنب فقال: أى رب: اغفر لى ذنبي، فقال الله تبارك وتعالى: علم عبدى أن له ربًّا يغفر ذنبه؟ قد غفرت لعبدى، فليفعل ما شاء".

إن الإنسان الذي صوره "الرسول" ﷺ في هذا الحديث لم يكن في رجعيه المكرر للخطيئة سوى صورة لنا جميعاً.. صورة للضعف البشري يُسلّمنا لأهواء النفس..

وإنه ليتقزّز من الخطأ..

ويقول: رب اغفر لى.. ثم يعاود الهوى، ثم يعود للرشد، وهكذا - حياته رحلة دائبة بين الخير والشر.. ومع هذا فإن مجرد إحساسه بالخطأ، ومجرد إيمانه بأن الله سيناله برحمته ومغفرته أعني أن رجاءه في الله، أظفره حسب سياق الحديث النبوى برحة الله الواسعة المتمثلة في هذه العبارة:

## الرَّحْمَةُ مَهْبَتُهُ

٢٩

"قد غفرت لعبدى، فليفعل ما شاء"<sup>(١)</sup>

وفي حديث آخر يصور لنا رحمة الله الواسعة فيقول:

"جعل الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلائق؟ حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدتها خشية أن تصيبه.."

إن كل ما في الأرض من رحمة نرى مظاهرها، ليست سوى جزء واحد من مائة جزء، فلتتصور إذن الأجزاء التسعة والتسعين التي استأثر الله بها لنفسه كي يرحم بها الناس، يوم تشتد إلى رحمه حاجتهم؟؟

هذه صورة باهرة لرحمة الله تطرد عن الأفندة كل فزع منه.

ويعززها "الرسول" ﷺ بصورة أخرى حين رأى أمّا تضم طفلها إلى صدرها في حنان بالغ، فالتفت إلى أصحابه وقال لهم:

"أترون هذه طارحة ولدتها في النار..؟؟ قال أصحابه: لا، والله يا رسول الله.. قال: لله أرحم بعده المؤمن، من هذه بولدتها.."

ويقول عليه السلام:

"إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مُسىء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل.."

ويقول أيضاً:

"يدئ المؤمن يوم القيمة من ريه حتى يضع عليه كنهه، فيقرره

(١) وعبارة "فليفعل ما شاء" ليست إذنا بالخطيئة ولا إلغاء لمسؤولية الإنسان عنها - إنما هي صورة لفظية تسم بها الصورة التي يرسمها الرسول ﷺ لرحمة الله بعباده.

## انسانيات

بذنبه فيقول، أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: رب أعرف. فيقول الله له: فإنني قد سترتها عليك في الدنيا، وانا أغفرها لك اليوم فيعطي صحفة حسناته.."

والآن، تبلغ من قلب "محمد" الكبير الرحيم، لوحة تناهت في الإبداع،  
تصور رحمة الله في بهاء عظيم.

إنها قصة موجزة يقرب فيها من الأذهان - على عادته - الخلاصة النهائية  
لرأيه الذكي في رحمة ربه الكبير.

انظروا..

"كان فيمن قبلكم رجل قتل تسعاً وتسعين نفساً.. فسأل عن أعلم أهل الأرض فدلّ على راهب فأتاهم.. فقال إنه قتل تسعة وتسعين نفساً، فهل له من توبة..؟ قال الراهب: لا.. فقتله الرجل، فكمل به مائة، ثم سأله عن أعلم أهل الأرض، فدلّ على رجل عالم. فقال: إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة..؟ فقال له: نعم، ومن يحول بينك وبين التوبة.. انطلق إلى أرض كذا، وكذا؛ فإن بها أناساً يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم.. ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء.. فانطلق، حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت.. فاختصمتُ فيه ملائكة الرحمة، وملائكة العذاب.. قالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً، مقبلًا بقلبه إلى الله تعالى..

وقالت ملائكة العذاب: إنه لم ي عمل خيراً قط.. فأتاهم ملك في صورة آدمي، فجعلوه بينهم حكماً، فقال قيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيهما كان أدنى فهو لها.. فأوحى الله إلى بلد المعصية أن تبعدى، وإلى بلد التوبة أن اقتربى.. فقسوا بين البلدين، فوجدوه إلى

## الرَّحْمَةُ مُهْبَّةٌ

٣١

"بلد التوبه أقرب بشر، فغفر له.. ٦٦.."

إن "الرسول" ﷺ لا يرضى القتل، ولا يشجع عليه.. بل إنه لم يعرف جريمة تعادل الشرك بالله، سوى الإضرار بالناس.. مجرد الإضرار بهم، فما بالك بقتلهم، وإزهاق حياتهم..

وهو في الحديث السالف يضع رحمة الله تجاه أكبر الكبائر وأفծ الجرائم - ليりينا كيف أن التوبه الصادقة تحت جرائم كثراً، وأفءات على صاحبها عفو الله غذقاً !!

ولقد اختار للقصة ختاماً باهراً..

فجعل الرجل قريباً إلى بلد المعصية، ليりينا أن رحمة الله حين تجلى، لا يقف في طريقها شيء. حتى القوانين الطبيعية والكونية.. فلقد نقصَ الله الأرض من أحد أطراها، حتى إذا قيست المسافة بين الرجل وبلد التوبه كان إليها أقرب. فتأخذه ملائكة الرحمة !!

أيُّ فنان صادق عظيم، يستطيع أن يرسم لرحمة الله الواسعة لوحة أزهى وأجمع من هذه اللوحة الفتاتنة الجليلة.. !!

إن التوبه باب مفتوح بين الله وبين عباده، يصلهم به بالليل، وبالنهار.. وإن الله ليفرح بتوبه الإنسان ورجوعه عن الخطأ، أشد من فرح أب حنون فقد ابنه في فلاة موحشة. وفجأة يلقاه أمامه سليمان معافي !!!

والطاعات تمثل عند "الرسول محمد" ﷺ معنى أسمى مما يخطر ببالنا، فهي ليست مقصودة لذاتها، لا، ولا هي مقصودة لما تفضي إليه من ارتقاء نفسي فحسب.. بل هي قبل هذا وبعد هذا، السبيل الذي يؤهلنا لصفحة الله، والالتقاء به. لنقرأ معًا هذا الحديث الذي يتمثله "محمد" ﷺ حكاية عن ربه:

"يقول الله عز وجل: من جاء بالحسنة، فله عشر أمثالها، أو

## انسانيات ﷺ

أزيد.. ومن جاء بالسيئة، فجزاء سيئةٌ مثلها، أو أغفر.. ومن تقرب مني شيئاً. تقربت منه ذراعاً.. ومن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً.. ومن أتاني يمشي، أتيته هرولة.. ومن لقينى بقُربِ الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئاً. لقيته بمثلها مغفرة.."

لنتظر ملياً هذه الصورة الحانية المشたقة التي يتصور بها "محمد" حنان الله علينا. وشوقه إلينا.

إنه سبحانه يريدهنا.. يريدهنا بجانبه على أية حال.. طائعين أو آثمين.. إن ذراعيه مفتوحتان تتلقيان لهفتنا ورجائنا بحنان مفيسض.  
انظروا هذه الكلمات:

"من أتاني يمشي، أتيته هرولة...!!!"

أىَّ تصور ذكىٌ مشرق عارم النفحات - هذا الذى يتصور به "محمد" ربه وبارئه.. وربنا وبارئنا..؟؟  
إن الله يريدهنا أن نطيعه. لأن الطاعة تجعلنا في حالة فاضلة تؤهلنا للقاء، والتلقى عنه.

إن الطاعات هي الخطوط التليفونية التي تصلنا بمركز وجودنا، الله رب العالمين..!!

وإذا أخطأنا.. إذا أذننا.. فلا ينبغي أن نتحطم ونسحق تحت وطأة الشعور بالإثم، بل علينا أن نهض من جديد.. وألا تخاف الخطيئة أبداً.. لأننا أكبر منها، ولأن عفو الله أكبر منا ومنها جيئاً !!

هذا ما نفهمه عن "محمد" ﷺ وهو يسدى إلينا أفسح رحمة وحين يحررنا من وطأة الشعور بالذنب.

## الرَّحْمَةُ مَلْكُه

انظروا..

"والذى نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاجء بقوم  
يذنبون فيستغفرون؛ فيغفر لهم..."

هل كان الرسول ﷺ بهذا يشاعر الخطايا؛ ويرُوِّج لها؟؟..  
كلا.. وإنما هو يعالجها ألمع علاج، حين يهبنا من الأمل في رحمة الله، ما  
تفوق به على الضعف أمامها..  
هذا الضعف الذي لا يولده شيء، مثل دوام اجترارها، والإحساس  
الضاغط بها.

إن حسن الظن بالله، هو ما يريد "محمد" ﷺ من الناس حتى يحبوا ربهم،  
وحتى ينشئوا علاقتهم به سبحانه على أساس رضى مكين من الأمل، والرجاء،  
والشوق.

وهو لهذا يوصيهم قائلاً:

"لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل.."

ويقول:

"قال الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي وأننا معه إذا دعاني.."

ويقول:

"إن حسن الظن بالله تعالى من حسن العبادة.."

ويكافح "الرسول الإنسان" جميع أولئك الذين يُقْنَطُون الناس من رحمة  
ربهم ويمقتهم مقتاً شديداً. ويضرب لهم مثلاً فيقول:

"كان ثمة أخوان: أحدهما يعبد الله، والأخر يعصيه.. وذات يوم



## انسانيات محمد

قال الذى يعبد للأخر: أما آن لك أن ترعوى؟ والله لتدخلن النار، ولن يغفر الله لك..

ولما توفاهما الله، وقفَا بين يديه. فقال للعابد: من الذى أمرك أن تتالى على؟ أى تتحكم فى رحمتى وتحلف على ما لا تملك؟ اذهبوا به إلى النار، وقال للأخر: ادخل الجنة برحمتى.."

إن رحمة "محمد" ﷺ هنا، لتجاوز كل حدود الإطراء.. فهو من فرط رحمته بالناس، يضن بها على التجربين الذين يروجون لليلأس، وهو يدرك إدراكاً سديداً رشيداً أن الرحمة ليست ترفاً، إنما هي ضرورة.. وأحق الناس بها، أكثرهم حاجة إليها.. وفي هذا المقام، مقام الخطيبة والذنب يصير العصاة أحوج العالمين إلى رحمة الله، وإلى الأمل في الله.. ومن ثم فهو يرفض أى تقنيط لهم من رحمة ربهم؛ ويعتبر مثل هذا العمل ذنباً أكبر من كل ذنب..

وهو يُنْهِي كل قوى التشبيط واليلأس عن علاقة الناس بالله، ويرسم صورة من أعدب وأمتع الصور التي تحكى برأ الله الناس، وأبوته الحانية لهم جميعاً.  
يقول عليه السلام:

"ما من يوم تطلع شمسه إلا وتقول السماء: يا رب أئذن لي أن أسقط كسفاً على ابن آدم؛ فقد طعم خيرك، ومنع شكرك وتقول الأرض: يا رب أئذن لي أن أبتلع ابن آدم؛ فقد أكل خيرك، ومنع شكرك.. وتقول البحار: يا رب أئذن لي أن أغرق ابن آدم، فقد أكل خيرك، ومنع شكرك، وتقول الجبال: يا رب أئذن لي أن أطبق على ابن آدم؛ فقد أكل خيرك، ومنع شكرك..

فيقول الله لهم جميعاً: لَوْ خلقتُمُوهُ، لَرَحِمْتُمُوهُ، دَعُونِي، وَعَبَادِي..

إن تابوا إلىَّ فَإِنَا حَبِيبُهُمْ، وإن لم يتوبوا، فَإِنَا طَبِيبُهُمْ...!!!"

## الرَّحْمَةُ مُخْلِّسٌ

٣٥

هذه اللوحة المبهجة التي يرسمها "محمد الإنسان" تناهت في الجلال والمغزى ..

فهو يفترض حالة يُحاطُ فيها الإنسان بالأخطار والعداوات من كل جانب ..  
من فوقه، ومن تحته، وعن يمينه، وعن شماله .. ثم لا يجد إلا رحيمًا ودوًّا واحدًا،  
هو ربُّه ومولاً ..

ثم هو يكشف في كلمات أخاذة عن طبيعة الرحمة التي يُظُلِّلُ الله بها عباده ..  
إنها رحمة الخالق بخلقه الذي برأه بحكمته، واصطفعه لنفسه ..  
إنها رحمة الوالد بولده ..

انظروا هذه العبارة المشرقة:

"لو خلقتُمُوهُ، لرحمتمُوهُ !!!"

إن مكان الناس من الله، مكان الرائح الغادي بين حبيب وطبيب ..  
هكذا رسم "محمد" ﷺ الصورة حين قال حاكياً عن الله عز وجل: ..  
"دعوني وعبدني.. إن تابوا إلى فأنا حبيبهم.. وإن لم يتوبوا فأنا  
طبيبهم.."

وإذا كان الله في حال رضاه عنا، يكون الحبيب الذي لا متهي لِنفحاتِ حُبِّه ..  
وفي حال أسفه منا، يكون الطبيب الذي تأسو الجراح لمساتُ طِبِّه ..  
فكيف إذن يكون مصدر فزع أو خوف.. !!؟؟ ..  
حاشاه.. وسبحانه.

وأكرِّمْ به من حبيب ..  
وأنعم به من طبيب ..

\* \* \*

## انسانيات ﷺ

والرحة عند "محمد" تعمل عملها في إيجابية قوية. ويتابع القلب الكبير "محمد" كل الأسباب التي تجعل الرحة حقيقة واقعة وسابقة ينعم بها كل إنسان..

وفي ضوء هذا الموقف، ينبغي أن نفهم جميع التوجيهات والوصايا التي يدعونا فيها "الرسول" ﷺ إلى الطاعة وإلى الخير، فهو لا يريد بوصاياه وتوجيهاته أن يتحكم فينا، أو أن يسوقنا.

وإنما تمام رحمة بالناس أن يدفع عنهم الأخطاء، وينجنبهم مهاب الريح الباردة اللافحة.

فإذا دعا إلى خير وحضر عليه، فبدافع من رحمته..

وإذا نهى عن شر، وحدّر منه، فبباعت من رحمته..

فالرحمة بالإنسانية، هي التي تشحذ حرص محمد ﷺ على خيرنا وعلى مصيرنا وهي التي تجعله يأمر بالحسنى، وينهى عن السوء.

ومن أجل هذا، كان يخاف على الناس من ذنوبهم، وكان يرى تلك الذنوب كأنها أخطار داهمة تهدد حياتهم وسلامتهم.

يقول عليه السلام:

"إن المؤمن يرى ذنبه، كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع

"عليه.."

و "محمد" ﷺ على الرغم من أنه "رسول" مسئول عن رسالته، لا يقف من العصاة موقف المتألّى، والمسيطر.. بل موقف الرءوف الرحيم.. العزيز عليه عنتهم، الحريص كل الحرص على نجاتهم وسلامتهم.

وإنه ليحدّد مكانته هذه، في كلمات جليلة فيقول:

## الرَّحْمَةُ مُلْكُه

٣٧

"مَثَلِي وَمَثُلُكُمْ، كَمُثَلِ رَجُلٍ أَوْقَدَ نَارًا، فَجَعَلَ الْجَنَادِبُ وَالْفَرَاشَ يَقْعُنَ فِيهَا، وَهُوَ يَذْبُهُنَّ عَنْهَا.. وَأَنَا آخِذُ بِحِجْزِكُمْ عَنِ النَّارِ، وَأَنْتُمْ تُفْلِتُونَ مِنْ يَدِي..!!!"

هذا، هو موقف "محمد" تماماً من الذين يقودهم الهوى إلى الخطأ.. ليس عليهم بسيطر، ولا هو عليهم بجبار.. إنه إنسان يحمل تبعات إنسانيته ورُشده تجاههم، فهو يدفعهم عن الخطأ، كمن يدفع الفراش عن النار.. ما أبهج روحه، وهو يقول: "وَأَنْتُمْ تُفْلِتُونَ مِنْ يَدِي" ..!!

ويرد "الرسول" ﷺ الأمر كله إلى رحمة الله، لا إلى ما للناس من أعمال مهما تكون صالحة.. ذلك أن أعمالنا الصالحات، مهما تكون كثرتها ووفرتها، لا تفني بشكر نعمة واحدة من أنعم الله الكبرى.

يقول عليه الصلاة والسلام:

"قَارِبُوا وَسَدِّدُوا.. وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَنْجُوَ أَحَدٌ مِنْكُمْ بِعَمَلِهِ..  
قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةِ مَنِهِ وَفَضْلِهِ.."

هذا هو "محمد" لا يأخذ الغرور بما يقدم من عبادة وطاعة، وإنها لعبادة تشق بها الموازين. لأنه يعلم أن النعمة كلها من الله، وأنه إذا كان قد هُدِيَ إلى الخير، فبفضل من الله وحده.. وهذا يقتضي أن يعرف مكانه تماماً من الآخرين الذين تُسعفهم نصيبيهم من الهدى.. فهو لا يتألئ عليهم، ولا يستخف بهم، بل يدعو لهم ويشفق عليهم، ويُصلّى من أجلهم، ويتبعد جانب الخير الذي فيهم مهما يكن ضئيلاً، فيشيد به، ويبتعد منه ثقتهما بأنفسهم..

انظروا...

## انسانيات حملة

"جيء الرسول ﷺ ذات يوم برجل قد شرب خمراً.. فلما أبصره أصحابه قالوا: لعنه الله ما أكثر ما يُؤتى به شارياً.. فصاح الرسول ﷺ فيهم: لا تلعنوه، فإنه يحب الله ورسوله...!!."

أيُّ إنسان مشرق كان "محمد" ﷺ...!!  
إنه لا يهدم أقدار الناس لما فيهم من ضعف، بل يضع عينه على الخير  
الذى فيهم، ويهتف به...!!

وها هو ذا، على الرغم من أنه الرسول، وصاحب رسالة دينية، تحريم الخمر،  
وتراتها إحدى الموبقات الكبائر.. يكرم في إنسان يشرب الخمر فضيلة قد انطوى  
عليها. تلك هي فضيلة الحب...!!

"لا تلعنوه، فإنه يحب الله ورسوله!!.." و "محمد" ﷺ إذن، وهو يُركز على  
حب الخير و فعله وبغض الرذيلة وتركها، إنما يفعل هذا - كما قلنا - بدافع من  
رحمته بالفرد وبالجماعة.

بالفرد.. حتى لا يُفضي به السوء الذي يقترفه إلى بؤسِ نفسي يكدر صفو  
حياته.

وبالمجموع.. لأن المجتمع ما لم يرع الحقوق المشروعة، ويتواصل بالفضائل  
والخير، فإنه يصيب نفسه بشر ما يُمزقها.  
و "محمد" ﷺ يدرك هذا، ويضرب له مثلاً بليغاً:

"مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حَدُودِ اللَّهِ، وَالوَاقِعِ فِيهَا، كَمُثَلِّ قَوْمٍ اسْتَهْمَمُوا  
عَلَى سَفِينةٍ، فَصَارَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا، وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا.. فَكَانَ الَّذِينَ  
فِي أَسْفَلِهَا.. إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مُرْوُوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا  
خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا، وَلَمْ نَرْدُ مِنْ فَوْقَنَا.. إِنَّ تَرْكَوْهُمْ وَمَا أَرَادُوا  
هَلْ كَوَّا جَمِيعًا.. إِنَّ أَخْذَنَا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجُوا، وَنَجَوْا جَمِيعًا.."

## الرَّحْمَةُ مَنْجِلَتْهُ

٣٩

وهذا الإدراك الإنساني السديد، يحدد الطريقة التي يأخذ بها "محمد عليه صلاة الله وسلامه" على أيدي العصاة.. إنها الرحمة أيضاً، والرحمة دائمًا.. ولطالما كان يجيئه مُذنبون، يعترفون له، فيحاول هو أن يردهم عن اعترافتهم، حتى لا يضطر إلى أن ينزل بهم ما شرع الله من عقاب، مُرجحاً أمرهم إلى رحمة الله الواسعة!!!

وإنه لينأى عن الذين لا هم لهم إلا التباوؤ بأخطاء الناس، واليأس من صلاحهم.

يقول عليه السلام في هذا المقام:

"إذا سمعتم الرجل يقول: هَلْكَ النَّاسُ، فَهُوَ أَهْلُكُهُمْ.. أَى أَشَدُهُمْ هَلَاكاً.."

هنا إنسان بارٌ.. هنا أب للإنسانية. وملاذ..

هنا قلب كبير.. كبير جدًا.. لا يعرف القسوة، ولا الغرور، ولا التشفي، ولا اليأس.

هنا "محمد" وكفى..

\* \* \*

بهذه الرحمة واجه "محمد" خوف الناس من الله.. ذلك الخوف الذي رَحَمَ قلوبهم ورُؤاهم.

وانتهى بهم إلى رب رءوف رحيم يُقيل العثرة، ويقبل التوب، ويعفر الذنب، ويفرح بعودة عباده إليه، فرَحَ الوالد الحنون بعودة ابنه المفقود.

بقى أن نرى كيف طارد "محمد" النوع الآخر من الخوف.. الخوف من الناس.

\* \* \*

## انسانيات جمال

ماذا يخاف الناس من الناس..؟

إن الخوف هو فقدان الشعور بالأمن.. فكل ما من شأنه أن يُضعف هذا الشعور أو يُزيله، فهو عمل من أعمال الإخافة والإرهاب.

ووراء كل الأعمال العدوانية التي تبعث على الخوف - يكمن دافع جبار، هو: قسوة القلب.

قسوة القلب، أو قسوة الضمير - هي التي تُفرز كافة الأفعال والتصرفات التي تسلّم ضحاياه للأسى والخوف..

والقسوة، حتى حينما تقمص عملاً مشروعاً، أو قصاصاً عادلاً، تجعل هذا العمل، وذاك القصاص أقرب ما يكونان إلى الظلم..

وما أجل الحكمة التي قالها الرومان الأقدمون: "العدل الصارم، ظلم صارم" ..

ولكي يعالج "محمد" عليه السلام دواعي الخوف - راح يبدأ من أبعد نقاطها، ومصدر انطلاقها.. من قسوة النفس، ثم يتبع الخوف في كل مظاهره، وكل دواعيه، حتى تهين رحمة الكبيرة حياة بلا مخاوف.

فالقسوة عدو لددود للرحمة.. و"الرسول" ﷺ لهذا يواجهها مواجهة فاصلة - من أبغض مظاهرها، حتى أكبر هذه المظاهر خطراً..

تقول عائشة رضى الله عنها:

"قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ، فقالوا: أتُقبلون  
صبيانكم؟ فقال: نعم.. قالوا: لكننا والله ما نُقبل..!"

فقال رسول الله عليه السلام: أوَ أملأك إن كان الله نزع من  
قلوبكم الرحمة.."

إن القبلة الأبوية الحانية التي نعرب بها عن حبنا لأطفالنا، تمثل شيئاً جليلاً

## الكلمة ملخصه

٤١

عند "محمد" ﷺ.. إنها ليست عملاً من أعمال التسلية، أو اللهو.. إنها الرحمة تتخذ مظهراً مهماً يهدى عابراً فإن وراءه ذلك الرصيد الضخم الذي يريده "محمد" لجميع الناس من الرحمة، والعطف، والحنان..

وهو لهذا يدمغ الذين ينصرفون عن هذا المظاهر العابر للرحمة بقسوة القلب، وينبّرهم أن الرحمة قد نزعت من قلوبهم.

وفي مستوى أعلى من مستوى العلاقة بين الكبار، وأطfaهم.. أعني حينما تكون العلاقة بين الناس بعضهم بعضاً، تحول القبلة إلى مظاهر كثيرة مناسبة.. فالكلمة الطيبة رحمة.. والنظر العاطفة رحمة.. والهدية المتواضعة رحمة.. والصفح الجميل رحمة.. وعيادة المريض رحمة.. بل وتشميم العاطس رحمة.. وكل هذه الأعمال التي تبدو بسيطة، يشكل "الرسول" ﷺ منها ومن نظائرها - نهجاً للسلوك الاجتماعي الذي تنمو فيه روابط الود، وتخفى وبالتالي

أسباب التسلط، والقطيعة، والخوف..

أى أن "محمدًا" ﷺ يكافح دواعي خوف الناس من الناس، بإنعاش دواعي الثقة والمودة بينهم، واتباع التي هي أحسن في كل ما يقال، وما يُصنع. فالإنسان للإنسان أخ..

"لا يظلمه، ولا يخذلك، ولا يحرقه.."

إن التعبيرات البسيطة التي تعكس المودة والعطف، ذات أثر كبير في إحياء الإباء الإنساني، ولهذا كان الرسول شديد الاهتمام بها، وكبير الاهتمام أيضاً بأن تصدر عن قلوب سليمة وعن نوايا طيبة صادقة.

يقول البراء بن عازب رضي الله عنه:

"أمرنا رسول الله ﷺ بسبعين.. أمرنا بعيادة المريض، واتباع الجنائز، وتشميم العاطس، وإبرار المقسم، ونصرة المظلوم، وإجابة الداعي،



"إفشاء السلام.."

\* \* \*

ولما كانت القسوة في كثير من أحواها ثمرة الغرور.. ولما كان الغرور مسؤولاً عن كثير من الإهانات التي تلحق ببعض الناس، لا لذنب جنوه.. ولكن بمجرد أنهم في الكادر الاجتماعي يأخذون مكانهم في الصنوف الخلفية.. ولما كان وراء هذا الغرور غالباً، الزَّهُو بالمال، أو الجاه، أو بالمنصب.. فقد ذهب "محمد" يُسوى بكل هذه المظاهر التراب؛ حتى يرعى كل مغرور صَلِف، وحتى يطمئن الضعفاء والناس العاديون .

ويضرب "محمد"  الأمثلة لقوم يتفكرون، فيقول:

"احتاجت الجنة والنار، فقللت النار: في الجبارون والمتكبرون.."

"وقالت الجنة: في ضعفاء الناس ومساكينهم. فقضى الله بينهما.."

"قال للجنة: أنت رحمتى، أرحم بك من أشاء."

"وقال للنار: أنت عذابى أعدب بك من أشاء."

من هذا المثال البليغ نستطيع أن ندرك الطريقة التي يهدم بها "محمد"  كل عوامل التمزق النفسي بين الناس.

فالجبارون والمتكبرون ليسوا في مكان يُغيّطون عليه، أو يؤهّلهم للتغطرس على عباد الله.. إنهم في نار الرذيلة التي تسربلوا بها، وحرّمتهم حبُّ الناس وصلوات قلوبهم - رذيلة الكبر، والتجبر، والجحود..

وهؤلاء الذين يبدون ضعفاء مساكين، لأنهم ظَلَّوا عن أنفسهم كل مظاهر الخياء، والترف، والتجبر..

هؤلاء هم الذين ظفروا بجفات الحب، والطمأنينة، والسلام.. ويستمر

"الرسول"  في نهنهة ضراوة التجبرين، فيقول:

## الرَّحْمَةُ مُحْبَّبَةٌ

"إن الرجل العظيم السمين، ليأتى يوم القيمة"

"لا يزن عند الله جناح بعوضةٍ.."

والعظيم السمين هنا، كنایة عن المتعاظم بجاهه، المتبذخ بثرائه.. ولنقرأ معًا هذا النبأ:

"مر رجل على النبي ﷺ فقال لرجل عنده جالس: ما رأيك في هذا؟ فأجاب: إنه من أشراف الناس.. وإن الله لحرى إن خطبَ أن ينكح. وإن شفعَ أن يشفعُ. وإن قال إن يسمع لقوله.. فسكت رسول الله ﷺ.. ثم مرَّ رجل، فقال له "الرسول": ما رأيك في هذا؟ فقال: يا رسول الله. هذا رجل من فقراء المسلمين، حرى إن خطبَ ألا ينكح، وإن شفعَ ألا يشفعُ، وإن قال ألا يسمع لقوله.. فقال رسول الله عليه السلام: هذا خير من ملء الأرض من مثل ذاك...".

لقد أراد "الرسول" ﷺ على حسب هذا النبأ المروي أن يرفع في وجه غرور الجاه.. شرف التواضع...

والرسول لم ينبد الرجل الأول بمجرد كونه من أشراف الناس.. بل لا بد أنه كان من المغورين بمكانتهم الاجتماعية.. ولقد جعل خيراً منهم الناس العاديين الذين يعملون في صمت، ويحيون في تواضع وسلام..

والإساءات قلما تقع بين ناس متبعدين.. لأنها نتيجة الخلطة الدائنة، والاحتكاك الاجتماعي.. فانت لا تختلف مع رجل لا تعرفه.. إنما يكون الخلاف - حين يكون - بينك وبين صديق أو قريب..

هذا يوصى "الرسول" ﷺ بالجار، ويشدد في الوصاية.. ذلك لأن الجيران تجمعهم خلطة دائمة.. وهذه الخلطة تجعل احتمال الخلاف والنزاع بينهم كثيراً.. فيطغى القوى على الضعيف، ويقطع بينهم ما أمر الله به أن



يُوصَل ..

وهنا يركز "محمد" في ذكاء عظيم على حق الجوار:

"ما زال جبريل يوصيني بالجار، حتى ظننت أنه سيورثه.."

"والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، قيل: من هو يا

رسول الله؟ قال: الذي لا يؤمن جاره بوائقه.."

هذا هو ما يريده "محمد" الإنسان الرحيم.. ألا يخاف جار "ضعيف" جاره

القوى.

وهو لهذا، ينفي الإيمان نفياً أكيداً، عن كل جار يخافه جاره ولا يأمن غواصاته

وشروره.

يالفِطْنَةُ هَذَا النَّبِيُّ، وَيَالرَّحْمَةِ الْحَانِيَةِ !!

إنه يعلم حاجة الناس إلى الأمان في جوارهم.. فالجار مطلع على أسرار

جاره، قادر على وضع الأذى في طريقه..

وهنا يتقدم "محمد" رافعاً حقوق الجوار لواءً لا ينبغي لأحد أن يتحداه،

فإن فعل، فقد خلع رينة الإيمان:

"من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يُؤذن جاره"

"خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند

الله، خيرهم لجاره.."

ولقد قيل له عليه السلام يوماً:

"يا رسول الله: إن فلانة تكثر من صلاتها، وصدقتها، وصيامها

- غير أنها تؤذى جيرانها بلسانها، فقال: هي في النار.."

وإنه عليه السلام، ليشير في رحمة دافقة إلى أهم حقوق الجار فيقول:

## الرَّحْمَةُ مِنْ حُبِّهِ

٤٥

"إذا استعان بك أعنثه.."

"وإذا استقرضك أقرضته.."

"وإذا افتقر عدت عليه.."

"وإذا أصابه خير هنأته.."

"وإذا أصابته مصيبة عزيته.."

"وإذا مات اتبعت جنازته.."

"ولا تستطل عليه بالبنيان، فتحجب عنه الريح إلا بإذنه. ولا تؤذه  
بقثار ريح قدرك إلا أن تغرف له منها.. وإن اشتريت فاكهة فاحد لها،  
فإن لم تفعل فأدخلها سراً، ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده...!!".

أية إنسانية شحنت بها هذه الكلمات...؟؟

وأى قلب كبير هذا الذي وحبه الله "محمدًا" ﷺ !!؟؟

وما يتطلبه الجوار من رعاية، تتطلب مثله القرابة، في الوقت ذاته، وللسبب  
نفسه..

وهنا يوصي "الرسول" بالرَّحْمَةِ:

"من كان يؤمن بالله واليوم الآخر. فليصلِّ رحمه، ويضرب عليه  
السلام مثلاً رائعاً لأهمية الرَّحْمَةِ وجلالها فيقول:  
إن الله تعالى خلق الخلق، حتى إذا فرغ منهم قامت الرَّحْمَةُ  
فقالت: هذا مقام العائد بك من القطعية. قال الله: نعم. أما ترضيَّن أن  
أصلِّ من وصلك، وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى قال: فذلك لك.."

\* \* \*

واليتيم، والأرملة، والمسكين - أكثر الناس خوفاً من المصير، وأكثرهم حاجة  
إلى الحنان، والأمن، والرحمة.



—

## انسانيات

—

وهنا يتقدم "محمد" ﷺ فيسط عليهم جناحه:  
ـ أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين . مشيرًا بأصبعه السبابية  
ـ والوسطى ..

ـ إن أحب البيوت إلى الله، بيت فيه يتيم مُكرَّم  
ـ والذى بعثى بالحق، لا يعذب الله يوم القيمة من رحم اليتيم،  
ـ وألان له فى الكلام، ورحم يُتمه وضعفه ..  
ـ الساعى على الأرمدة، والمسكين، كالمجاهد فى سبيل الله،  
ـ وكالذى يقوم الليل، ويصوم النهار ..

\* \* \*

إن "محمدًا" ﷺ يتعقب قسوة القلب في كل مجالاتها، لأنه يدرك مسئوليتها  
عن الخوف الذي يسلطه بعض الناس على بعض، وعن السوء الذي يلحقه بعض  
الناس ببعض.

وهو إذ يوصي بالرحمة خيرًا، فلأنه يعلم ما يلحقه الهجر، والقطيعة بها من  
فزع وأسى .. وهذا صورها لنا وَجْلَةً مُفزعَة، آخذة بعرش الله تقول في ضراعة:  
ـ "هذا مقام العائد بك من القطيعة .."

و "محمد" حريص على أن يحرر الأحياء من مخاوفهم، ويذهن دواعي  
الخوف في كل مظانها ..

وإنه ليتعقب تلك المظان واحدة تلو الأخرى، على النسق الذي رأينا ..  
وبعبارة واحدة - فمحمد ﷺ الذي أملت عليه رحمته الواافية تحرير الناس من  
الخوف - ينظم حلة واسعة النطاق ضد الشرور الضاربة في الحياة الإنسانية.  
فتلك الشرور هي ما يخاف الناس .. وإنه لن يغادر منها صغيرة ولا كبيرة إلا  
يدحضها، ويحذر منها، ويُطاردها ..

## الرَّحْمَةُ مَلْجَاهُ

٤٧

طارد القسوة.. طارد القطيعة.. طارد الصلف والغرور.. كما رأينا في  
أحاديث السالفة..

ثم هو يطارد الغضب قائلاً:

"شِرَكُمْ سَرِيعُ الغَضْبِ، بَطْنَى الْفَيْءِ وَخَيْرُكُمْ بَطْنَى الغَضْبِ،  
سَرِيعُ الْفَيْءِ.."

وحيث يسأل أحد أصحابه عن العمل الذي يدخله الجنة، يجيبه:

"لَا تَغْضِبُ، وَلَكَ الْجَنَّةُ.."

ويقول:

"لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرُعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ مَنْ يَمْلِكُ نَفْسَهُ  
عِنْدَ الغَضْبِ.."

"أَلَا أَخْبِرُكُمْ بِمَنْ تَحْرُمُ عَلَيْهِ النَّارُ؟ تَحْرُمُ عَلَى كُلِّ هَيْنَ  
لَيْنَ، سَهْلُ.."

ويرسم مشهدًا من المشاهد الفاتحة التي تبهر الأ بصار بجماليها وثير الأرواح  
بدلالتها فيقول:

"إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الْخَلَائِقَ، نَادَى مَنَادٍ: أَينَ أَهْلُ الْفَضْلِ؟ فَيَقُولُونَ نَاسٌ  
وَهُمْ يَسِيرُونَ، فَيَنْتَلِقُونَ سِرَاعًا إِلَى الْجَنَّةِ، فَتَتَلَاقَاهُمْ  
الْمَلَائِكَةُ، فَيَقُولُونَ: إِنَّا نَرَاكُمْ سِرَاعًا إِلَى الْجَنَّةِ، فَمَنْ أَنْتُمْ؟  
فَيَقُولُونَ: نَحْنُ أَهْلُ الْفَضْلِ.. فَيَقُولُونَ: وَمَا فَضْلُكُمْ، فَيَقُولُونَ: كُنَّا  
إِذَا ظُلِّمْنَا صَبَرْنَا، وَإِذَا أَسْيَءَ إِلَيْنَا حَلَّمْنَا. فَيَقَالُ لَهُمْ: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ  
فَنَعَمْ أَجْرُ الْعَامِلِينَ.."

ويطارد الحسد والبغضاء فيقول:

## انسانيات

"لا تحاسدوا.. ولا تدابرُوا، ولا تبغضوا، وكونوا عباد الله

إخواناً.."

ويطارد الفضول في شئ صوره:

"من اطلع في بيت قوم بغير إذنهم، فقد حل لهم أن يفتقوا عينه.."

"من استمع إلى حديث قوم، وهم له كارهون.."

صُبَّ في أذنه الآنك. أى الرصاص المذاب - يوم القيمة..".

وينهى عن السباب والشتم:

"المُسْتَبَّان شيطانان، يتهاتران ويتكاذبان.."

"إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه.."

قيل يا رسول الله، كيف يلعن الرجل والديه..؟

قال: يَسُبُّ أبا الرجل، فِي سُبُّ أباه. ويَسُبُّ أمَّه، فِي سُبُّ أمَّه.."

وتروى عائشة رضى الله عنها هذا النبأ الجزل فتقول:

"مرَّ النبِي ﷺ بأبى بكر، وهو يلعن بعض خدمه. فالتفت النبِي

إليه، وقال لعائين، وصَدِيقين<sup>١٦</sup> كلا ورب الکعبه.. فسرح أبو بكر

خدمه تكفيراً عن شتمه لهم، وجاء إلى النبِي عليه السلام وقال: لا

أعود.."

وينهى "الرسول" ﷺ عن تروع الإنسان أخيه ولو باتفاقه مظاهر التروع..

انظروا:

"لا يُشِرِّ أَحدكم إلى أخيه بالسلاح، فإنه لا يدرى.. لعل الشيطان

ينزع في يده.. أى يرمى.. فيقع في حفرة من النار.."

وأتلو هذا الحديث أيضاً:

## الرَّحْمَةُ مُفْلِحَةٌ

"من أشار إلى أخيه بحديدة، فإن الملائكة تلعنه حتى ينتهي وإن  
كان أخاه لأبيه، وأمه.."

ويطارد النميمة، والغيبة، والبهتان:

"شرار عباد الله، المشاءون بالنميّة، المفرقون بين الأحبة،  
الملتسمون للبراء العيب.."

"الغيبة والنميّة يحتّان الإيمان، كما يعضُّ الراعي الشجرة.."

ويسأل أصحابه يوماً:

"أتدرؤن من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا مئاع.  
فقال عليه الصلاة والسلام: المفلس من أمتي من يأتي يوم القيمة  
بصلاوة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا.. وقدف هذا.. وأكل مال  
هذا.. وسفك دم هذا.. وضرب هذا.. فيعطي هذا من حسناته، وهذا  
من حسناته، فإن فتيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه، أخذَ من  
خطاياهم فطرحت عليه.."

\* \* \*

إن "محمدًا" يحمي أعراض الناس، ويدفع عنها كل لسان ثرثار.. وفي  
خطبة الوداع، يجلجل "محمد" بين الملائكة قائلاً:

"إن دماءكم، وأموالكم، وأعراضكم، حرام عليكم،  
كرحمة يومكم هذا.. في شهركم هذا.. في بلدكم هذا.. ألا هل  
بلغت...؟؟؟"

"من ردَّ عن عرض أخيه، ردَّ الله عن وجهه النار يوم القيمة.."

أية رحمة ورأفة كرحة هذا "الرسول" الإنسان العظيم، الذي لم يترك شيئاً مَا



يمكن أن يكون مصدر ألم للإنسان إلا دهنه، ونهى عنه.  
هذا الذي يجعل لسيرة الإنسان من القداسة والحرمة مثل ما لبيت الله الحرام،  
الذي هو عند "محمد"، وفي رسالته، قمة القداسة، والتوقير...!!  
يُسأل أصحابه يوماً ليعلمهم:

"أتدرؤن ما الغيبة.. قالوا: الله، ورسوله أعلم.. قال: ذكرك  
أخاك بما يكره.. قيل.. أرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال عليه  
الصلوة والسلام: إن كان فيه ما تقول، فقد اغتبته.. وإن لم يكن  
فيه ما تقول، فقد بهته".

ترى، هل وقفت رحمة "محمد" عند الإنسان وحده..؟؟ كلا.. ولقد سعت  
إلى كل كائن حي، لتدفع عنه الغوايل والشرور.  
فهذه الكائنات المهيضة من حيوان، وطير، بل حشرة.. ينبض القلب الكبير  
بحقها في الرحمة وحقها في الرفق، وحقها في الملاذ.  
فالحيوان جدير بالرحمة.. بل لعله أحق بها؛ وأكثر احتياجا إليها.. هذا الذي  
لا يملك أن يشكو، ويتواجع، ويقول: رحماكم!  
يقول عليه السلام:

"عذبت امرأة في هرّة حبستها حتى ماتت، لا هي أطعمتها  
وسقتها. ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض...".  
ومن فرط إحساسه عليه السلام بحاجة الحيوان إلى الرحمة، كان كأنه يستمع  
إلى شكاوة الحيوان المعنى، وكأنما هو نداء النجدة لكل طالب رحمة، حتى لو يكون  
حيواناً.

يقول عبد الله بن جعفر:

## الرَّحْمَةُ مِنْ كُلِّهِ

٥١

"دخل رسول الله ﷺ بستائنا لرجل من الأنصار، فإذا فيه جمل: فما إن رأى النبي ﷺ حتى حنَّ وذرفَت عيناه؛ فأتاه رسول الله ﷺ فمسح ذفراه فسكن.. وقال "الرسول": مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمْلِ؟ فَقَالَ فَتى مِنَ الْأَنْصَارِ: هُوَ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ.. فَقَالَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَلَا تَتَقَبَّلُ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَكَ اللَّهُ إِيَّاهَا؛ فَإِنَّهُ شَكَّا إِلَى أَنْكَ تَجْيِعَهُ وَتَدَبِّبَهُ..!!"

وحتى إساءة الحيوان، أو الحشرات، ينبغي أن تقابل بالرحمة وتعالج بالرفق.. ويضرب "محمد" ﷺ لهذا مثلاً جميلاً فيقول:

"قرصتْ نملة نبياً من الأنبياء، فأمر بقرية النمل فأحرقت فأوحى الله تعالى إليه. أنْ قرصتك نملة.. أحرقت أمة من الأمم ثم سبح..!!"  
انظروا كيف تألق إنسانية "محمد" وتسمو، فيسمى جماعة النمل "أمة"..  
وأمة تهديها غريزتها إلى أن لها بارئاً خلاقاً، فهي تسبح بحمده..!  
والذي يؤاخذه الله في هذه القصة على تخليه عن الرحمة تجاه حفنة من النمل، ليس فرداً عادياً.. بل هونبي من الأنبياء..

إن الصورة على بساطتها تتضمن أروع نماذج الرحمة على الإطلاق وتكشف عن نفسية "محمد" العذبة، كما لا يكشف شيء مثلها.

حفنة من النمل، لا يدرك الناس لها، ولا لآلافٍ مثلها قدرًا - أي قدر..  
ترتفع في عين "محمد" إلى الحد الذي يتصور لها عنده قداسة وحرمة..  
وتقدس حقوقها إلى الحد الذي يؤخذ عندهنبي من الأنبياء، لأنه اعتدى عليها وتجنى..!!

بل إنه حين يأمر بقتل حشرة سامة تفترس الناس بلدغها.. يجعل المهارة في قتلها مرادفة للرحمة بها، ويرجو الثواب من ربها لمن يجهز عليها في غير إيلام لها.

انظروا:

"من قتل وزغة فى أول ضربة، كتبت له مائة حسنة، وفى الثانية دون ذلك، وفى الثالثة دون ذلك...".

إن الوزغة حشرة سامة كالأفعى.. والخلاص من شرها ضروري.. ولكن حتى هنا لا ينسى "محمد" فينشئ من مثوبته الله سبحانه جائزة لمن يجهز على تلك الحشرات القاتلة، دون أن يسبب لها ألمًا - أى ألم..!!

أجل - جائزة لمن يصيب الهدف دون أن يبعث منه أنين..!!  
ذلك أن الرفق عند "محمد" هو جوهر الحياة وزيتها.  
يقول عليه السلام:

"إن الرفق ما كان في شيء إلا زانه.. ولا يزع من شيء إلا شانه.."

\* \* \*

هذه ومضات من رحمة "محمد" ﷺ..

رحمته بالناس..

ورحمته بالأحياء جميعاً.

رحمة الإنسان الذي أرسله الله رحمة للعالمين.



## الفصل الثاني ■

# .. وَالْعِدَالُ لِشَرِيعَتِهِ

"فَمَنْ يَعْدُلْ، إِنْ لَمْ أَعْدُلْ؟"



ذات يوم. تقدم منه أعرابى فى غلطة، وسأله مزيداً من العطاء، وقال:  
اعدل يا محمد..  
والطمأنينة التى دفعت الأعرابى إلى هذا الموقف المسرف فى الجرأة.. هذه  
الطمأنينة وحدها، تصور عدل "محمد" أصدق تصوير.  
فما كان الأعرابى قادرًا على أن يقول مقالته تلك، لو كان "محمد" قد أقام  
بينه وبين الناس سوراً من التعاظم، والكبراء، وبثٌ فى نفوسهم الخشية منه  
والرهبوب!!

لكن "محمدًا" ﷺ، حطم كل معالم التمايز بينه وبين الناس.  
وحين دخل عليه رجل غريب، يختلج، بل يرتجف من هيئته، استدئاه،  
وربت على كتفه فى حنان، وفرط تواضع، وقال له عبارته المشهورة:  
"هُونَ عَلَيْكَ. إِنَّ أُمِّيَ كَانَ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ بِمَكَّةَ".

أجل - من هنا يبدأ الفهم الصحيح لعدل "محمد" ﷺ ..  
من هنا.. من إلغائه كل مظاهر التمايز بينه وبين الناس .  
فالرسول الذى اصطفاه الله واختاره.. والذى هياه تفوقه الأخلاقى والعقلى .  
والروحى لأن يكون أستاذ أمته ورائدتها.. وهياه اصطفاء الله له لأن يكون الإمام  
الذى يُجل، ويُطاع.. "محمد" ومعه كل هذه المميزات، يرفض كل امتياز، وينهى  
كل تمايز، ولا يفتأ يتلو على الناس هذه الآية الكريمة:

﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ !!



## انسانيات

إنه ليعلم أن التمايز أشد مظاهر الظلم وقاحة.. فالذى يزعم لنفسه مكاناً خاصاً فوق الناس، إنما يتحل ما ليس له بحق، وإنما يتبعدهم لشهوة الصلف، والغرور الكاذب.. ثم هو قبل هذا، وبعد هذا يضع نفسه حيث تغلبه نفسه، وحيث يقوده هواه إلى ارتكاب كل الآثام الباغية التي هي إفراز حتمي لاحساسه الخاطئ بالتمايز، والاستعلاء، وبالهيمنة..

و"محمد" الإنسان يعلم هذا، وليس في طبيعته إلا الهيام الشديد بالعدل، والإيمان به كفضيلة، وكضرورة.

من أجل هذا طهر نفسه تطهيراً من كل شعور بالتعالي.. وتنازل في نبل عظيم عن كل امتيازات تفوقه العظيم.

في سلوكه، كرسول وقائد، ينبذ التمايز ويرفضه.

يأتيه أصحابه قبيل غزوة أحد.. يقولون له: إن العدو في طريقه إلينا يريد أن يقضى علينا.

فيقول لهم: إنني أرى ألا نخرج لقتال..

يقولون: ونحن نرى أن نخرج ونقاتل..

فيستمهلهم بضع دقائق.. يغيب عنهم فيها، ثم يعود إليهم، وقد ارتدى لباس المعركة احتراماً لمشيئتهم واحتراماً لحقهم..  
ويسأله يوماً أعرابي في بداوة جافة:

يا "محمد" هل هذا المال مال الله، أم مال أبيك..؟؟

ويتذرع عمر بن الخطاب بسيفه يريد أن يجهز عليه، فيرد "الرسول" ﷺ:

قائلاً:

"دعاك يا عمر.. إن لصاحب الحق مقلاً" !!

## .. والعدل للشريعة

٥٧

وفي سلوكه كصديق.. يرفض التمايز أيضًا.. ففى بعض أسفاره يتهم أصحابه لإعداد الطعام. ويتقاسمون العمل فيما بينهم، فيقول "محمد" عليه صلاة الله وسلامه:

"وعلى جمع الحطب.."

"يقولون: يا رسول الله، إنا نكفيك هذا.."

"فيجيبهم: قد علمت أنكم تكفوتنى إيه ولكنى أكره

"أن أتميز عليكم.."

لقد جعل نفسه واحداً من الناس.

وإذن فالقانون الذى يحكم الناس يحكمه.. والواجبات التى يطلب إلى الناس القيام بها، عليه أن يقوم مثلهم بها، بل أكثر مما يقوم بها الآخرون؛ لأنه فى مكان التأسى، والقدوة.. لا فى مكان التدلل والحظوة..

ونعود إلى النبأ الأول الذى استهللنا به هذا الفصل من الكتاب، نبا الأعرابى الذى قال له: اعدل يا محمد..

لقد ابتسم الرسول عليه الصلاة والسلام ابتسامة المتهلل، ولم يزد على أن قال للرجل:

"ويحك.. فمن يعدل إن لم أعدل.." ١٩٦

و"محمد" حين يقول هذا، لا ي قوله متباهياً، ولا مختالاً. بل مذكرة الناس بحقهم فى أن يتوقعوا منه أقصى فرائض العدالة وفي أن يحاسبوه عليها إذا عن لهم ما يقتضى الحساب.

فإذا لم يقم "محمد" بالعدالة كاملة، فمن إذن يقوم؟  
إن واجبه أن يفعل..



و قبل الواجب، هناك طبيعته الخيرة النقية، تجري الفضائل الكبرى خلاها،  
كما يجري الدم النقى في العروق النظيفة..

فإذا لم يعدل "محمد" ﷺ - كل العدل - فقد أخلَ بواجبه..

وإذا لم يعدل - كل العدل - فقد جافى طبيعته..

و "محمد" ﷺ ليس الإنسان الذي يفرط في تبعاته.

و "محمد" ﷺ ليس الإنسان الذي يجافي فطرته، ويلوي طبيعته..

هذا هو معنى قوله عليه الصلاة وأبهى السلام:

"فمن يعدل، إن لم أعدل.."

\* \* \*

و "محمد" حين تخلى عن التمايز، لم يفعل ذلك إشباعاً لفضيلة التواضع.  
ولو أنه فعل ذلك من أجل ذلك، لكان عملاً حيداً وجليلاً..

ولكن "محمدًا" ﷺ إنسان تحركه بواعث أخرى تناهت في السمو والجلال.  
 فهو يرفض التمايز تحييناً للعدل.

وهو يعدل، لأن سلوكه العادل، تحقيق لذاته، وفطرته.  
وذاته وفطرته، لا تتكلفان المساواة وطلب التكافؤ.

بل هما متربعان بمشاعر هذه المساواة وحقيقةها.

ومن هنا فمحمد ﷺ لا يرى نفسه واحداً من الناس - توضعاً - بل هو واحد  
من الناس - حقيقة - يجري عليه ما يجري عليهم..

وإذا كان الله يعاقب الناس إذا ظلموا..

فمحمد سينزل به العقاب إذ ظلم، بالله، ما أروع هذا!!

انظروا..

"ذات يوم يرسل خادماً في حاجة قريبة، فيغيب نصف اليوم أو

## — .. والعدل لشريعته —

٥٩

قرابة ذلك.."

"ويأخذ الرسول ﷺ، ما يأخذ كرام البشر من الغيظ الكريم

ويظن من يراه أنه سينزل بالغلام حين يعود عقاباً أليماً.."

"وحين يعود الغلام: يلوح "الرسول" في وجهه بالسواك وهو يقول:

"لولا خوف القصاص من الله لأوجعتك ضرباً بهذا السواك.."

أرأيتم..؟؟

إن "السواك" عود صغير في حجم فرشاة الأسنان ويؤدي وظيفتها، ولو ضرب به، رضيع مائة ضربة ما آلمه ولا أوجعه، فضلاً عن فتى كبير.

ومع هذا؛ فالرسول يكظم غيظه، ويرفض أن يضرب الغلام بهذا السواك.  
لماذا..؟

خوفاً من قصاص الله..

ألم أقل لكم: إن استمساك "محمد" ﷺ بالعدل، لم يكن تباهياً بالتواضع ولا استمتاعاً بلذة العدل، وإنما توقيراً للعدالة نفسها، وإدراكاً لحقيقة وضعه بين الناس.. كواحد منهم.. واحد مثلهم، عليه أن يعدل كما أن على الناس أن يعدلوا، لأن العدل ميزان الحياة، وأى انحراف بهذا الميزان يُلحق بالحياة كلها أذى، ووبالا.

بل عليه أن يستوصى بالعدل أكثر مما يستوصى الناس؛ لأنه لهذا خلق..  
وهذا بُعيث..

ويتصور "محمد" العدل، تصوراً فدائماً، وينزله أعلى مكان حين لا يجعله فضيلة من فضائل البشر وحدهم، بل قبل هذا خلقاً من أخلاق الله سبحانه، ونهجاً ألزمته الله نفسه.

"يقول الله تعالى في حديث قدسي.

محمد

— انسانيات —  
"يا عبادى: إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرباً  
فلا تظالموا.."

و حين يتصور "محمد" ﷺ أن ربه الفعال لما يشاء قد حرم الظلم على نفسه.  
فإنه لا بد ناظر إلى الظلم كخطيئة لا تعادلها خطيئة أخرى بين كل خطايا البشر..  
ومن ثم ذهب في التحذير منه مذهبًا بليغاً، فيقول:

"اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيمة"  
"اتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب"  
"دعوه المظلوم يرفعها الله فوق الغمام، ويفتح لها أبواب السماء،  
ويقول رب: وعزتى لأنصرتك ولو بعد حين".

اتقوا دعوه المظلوم فإنها تصعد إلى السماء كأنها شرارة..  
والظلم عند "محمد" ﷺ يأكل فضائل الظالم، ويرعى حسناته كما ترعى النار  
الهشيم.

ولما كان يوم القيمة هو مظهر الجزاء والقصاص، فقد ناط به "الرسول" ﷺ  
مصير الظالم..

ونحن من عندنا نقول: إن لكل إنسان قيمته.. وإن قانون القصاص لقائم  
ونافذ، ويوم القصاص منك؛ يُمثل يوم قيمتك.. فلا يقولن ظالم: هيئات يوم  
القيمة؛ فإنها منه قريب جدًا قريب.

يقول محمد عليه السلام محذرًا الظالم من يوم القصاص:

"اتقوا الظلم ما استطعتم، فإن العبد يجىء بالحسنات يوم  
القيمة. يرى أنها ستجيء، فما يزال عبد يقول: يا رب ظلمنى عبدك  
مظلة. فيقول الله: أمحوا من حسناته.. وما يزال كذلك حتى ما

## .. والعطال شريعته

"يبقى له حسنة.."

وقصاص الظلم محتم ومبالغت.

"إن الله ليملأ للظالم، فإذا أخذه لم يُفلت.."

\* \* \*

ذات يوم صعد "الرسول" ﷺ المنبر، وراح يخطب الناس. قائلًا لهم:

"من كنت أخذت له مالاً، فهذا مالي، فليأخذ منه، ومن كنت

جلدت له ظهرًا، فهذا ظهرى؛ فليقتد منه.."

إن الإنسان العظيم يعلم أنه لم يأخذ مال أحد، لا ولا جلد ظهر أحد.

ولكنه التحرى المطلق للعدل، والرهبة البالغة من الظلم.. وهو لهذا يوصى

الناس فيقول:

"مَنْ كَانَ عِنْدَهِ مُظْلَمَةً لِأَخِيهِ مِنْ عِرْضٍ أَوْ مِنْ شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلَّهُ

مِنْهُ الْيَوْمَ مِنْ قَبْلِ أَلَا يَكُونُ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ.. إِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ،

أَخْذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِّلَ عَلَيْهِ.."

ولا شيء يكشف عن إيمان "محمد" بالعدل، ومقاومته الظلم مثل حديثه

المضيء الذي يقول:

"انصر أخاك، ظالماً أو مظلوماً، قال رجل: يا رسول الله، أفرأيت

إن كان ظالماً، كيف أنصره..؟ قال: تمنعه عن ظلمه، فإن ذلك

نصره.."

لقد بلغ من بشاعة الظلم عند "محمد" أن الظالم نفسه، يكون ضحية ظلمه،

إنه قد أنزل الظلم بنفسه، في ذات الوقت الذي أنزل الظلم بغيره.

وهو لهذا، مظلوم في صورة ظالم.. تعس في ثياب جبار..!"



ومقاومته، ومنعه عن الظلم، فوز له وانتصار، أكثر مما هي زجر وعقاب.  
ثم انظروا بهاء الإنسانية وألقها في ضمير "محمد" ﷺ وهو يقول: "انصر  
أخاك ظالماً.."

لو قال: "قاوم أخاك ظالماً، وانصره مظلوماً" لكان القول على حسب  
تفكيرنا أقرب إلى السداد..

ولكنَّ السداد في كلمات "محمد" ﷺ من طراز آخر، يعرف هو أكثر من  
غيره كيف يُضمنه كلماته الناصعة البهاء.

فمدافعة الظلم، حتى حين تتخذ هذه المدافعة شكلاً جاعياً أو ثوريًا - ليست  
عملاً من أعمال التقويض، بل هي من أعمال البناء والانتصار للحياة.  
ولسنا نعرف رذيلة رفع "محمد" مقاومتها إلى هذه المكانة، مثل رذيلة الظلم.  
إنه أعطى مقاومة الظلم إيجابية غامرة، وكساها بهاء ناضراً، حين جاوز بها  
مستواها.. وجعلها ظفرًا وانتصارًا!!

\* \* \*

والظلم تتفاوت أحاطاره، بتفاوت مصادره.  
وشرُّ مصادر الظلم جبار مسلط، وحاكم باع..  
وهُنَا يواجه "محمد" ﷺ الظلم في عرينه الخطير..  
وسبيله هنا، ليس استدرار عطف الحاكم الظالم.. بل هي المظلوم على  
المقاومة.. وحيث الناس جميعاً على دخُل الظلم ومكافحته..  
هنا يقول "محمد" ﷺ:

"إذا رأيتم الظالم، ولم تأخذوا على يديه، يوشك أن يعمكم الله  
بعذاب.." ويقول:

## .. والعمل الشرعي

٦٣

"إذا عجزت أمتى عن أن تقول للظالم: يا ظالم، فقد ثُوَدْعَ منها.."

ويسأله أحد أصحابه يوماً عن أفضل الجهاد، فيجيبه عليه السلام:

"كلمة حق عند سلطان جائر.."

وينظم الرسول عليه السلام مقاطعة الحاكم الجائر، كوسيلة ناجحة لمقاومة ظلمه وجوهره، فيقول:

"سيكون بعدي أمراء يظلمون ويکذبون.. فمن صدقهم بکذبهم، وأعانهم على ظلمهم، فليس مني، ولا أنا منه.. ومن لم يصدقهم بکذبهم، ولم يماثلهم على ظلمهم فهو مني وأنا منه.."

ويزيد "الرسول" ﷺ هذا المعنى تبياناً وإيضاحاً فيقول:

"يكون أمراء تغشاهم غواشٍ أو حواشٍ من الناس - يکذبون ويظلمون، فمن دخل عليهم فصدقهم بکذبهم، وأعانهم على ظلمهم، فليس مني ولست منه.. ومن لم يدخل عليهم، ولم يصدقهم بکذبهم، ولم يعنهم على ظلمهم فهو مني وأنا منه.

فهنا يشير "الرسول" ﷺ إلى حاشية الظالم بقوله "تغشاهم غواش، أو حواش من الناس يکذبون ويظلمون".

وهو عليه السلام يدعو إلى مقاطعة الظالم وحاشيته، حتى يتازوا بظلمهم.. فيقول: "من دخل عليهم فليس مني ولا أنا منه". انظروا عبارة "من دخل عليهم".

إن محمدًا ﷺ يريد أن يعزلهم عن المجتمع، حتى يحسوا بالنبذ وبالهوان، فيرجعوا عن ظلمهم أو يبوعوا بأثام بغיהם..



و "محمد" وهو يُلم بالحاشية في مقام الحديث عن الحاكم الظالم، يعني بالكشف عن الدور الخطير الذي تلعبه الحاشية في دعم الظلم، أو دعم العدل.. في إصلاح الحاكم أو إفساده.

فيقول عليه السلام:

"ما من وال إلا وله بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتنهى عن المنكر.. وبطانة لا تأله خبلا.. أى لا تدخر جهداً في إفساده.. فمن وقى شرها، فقد وقى.."

ويقول أيضاً:

"إذا أراد الله بالأمير خيراً، جعل له وزير صدق إن نسي ذكره.. وإن ذكر أعاده.. وإذا أراد الله به غير ذلك جعل له وزير سوء.. إن نسي لم يذكره.. وإن ذكر لم يعنه..؟"

\* \* \*

والظلم يتخذ أشكالاً شتى..  
فهناك ظلم بالفعل.. وهناك ظلم بالقول.. وهناك ظلم بالشعور  
قد تظلم الآخرين بأفعال تأتيها..  
وقد تظلمهم بكلمات تقولها..  
وقد تظلمهم بمجرد مشاعر كريهة تنطوي عليها نفسك..  
و "محمد" عليه الصلاة والسلام، يحيط بهذه الأشكال جيئاً في ذكاء عظيم،  
وفي ولاء للعدل أعظم..  
فلننظر الآن كيف يكافح الظلم كله..  
الظلم الذي يتمثل في حركة..

## .. والعمل شريعته

والظلم الذى يتمثل فى كلمة..

والظلم الذى يتمثل فى خلجة نفس..

\* \* \*

أما الظلم بالفعل، فينتظم كل عدوان على الناس فى أنفسهم.. وفى أعراضهم.. وفى أموالهم وكل حقوقهم.

أما الأنفس، فيحرم كل عدوان عليها من سفك الدم إلى لطمة الوجه..  
يقول عليه السلام:

"أول ما يقضى بين الناس يوم القيمة فى الدماء".

ويضع قتل النفس مع الشرك بالله جنباً إلى جنب.. فيه عن "السبع الموبقات" و يجعل منها قتل النفس بغير حق.  
ويبلغ "محمد" أوج الإيمان بالنفس الإنسانية حين يقول فى كلمات شاهقة:

"لزوال الدنيا جمِيعاً، أهون على الله من دم سُفك بغير حق.."

لو لم يكن له "محمد" سوى هذا الحديث، لكان كافياً للدلالة على ما يكتبه هذا الإنسان العظيم من ولاء للحياة منقطع النظير..!! ومن تقدير لحرمة الإنسان، يفوق كل تقدير..!

ذات يوم عشر أهل المدينة على جثة قتيل لم يعرف قاتله، فجمع "الرسول" **ﷺ** الناس وصعد المنبر غاضباً وقال:

"يُقتل قتيل وأنا فيكم، ولا يُعلم من قتله..؟ لو اجتمع أهل السماء والأرض على قتل امرئ لعذبهم الله، ولكبُّهم جميعاً على وجوههم في النار"



ويقول عليه السلام:

"يجيء المقتول أخذًا قاتله، وأوداجه تشخب دمًا.. يقول: يا رب سلْ

"هذا. فيم قتلني.."

بل اقرعوا هذا الحديث:

"لا يقفن أحدكم موقفاً يُقتل فيه رجل ظلمًا، فإن اللعنة تنزل على كل من حضره حين لم يدفعوا عنه، ولا يقفن أحدكم موقفاً يُضرب فيه رجل ظلمًا فإن اللعنة تنزل على كل من حضره حين لم يدافعوا عنه.."

\* \* \*

بل إن "محمدًا" ﷺ ليَرِى مجرد التهوييم بالسلاح، أو بالآلة حادة مؤذية عملاً يستوجب العذاب واللعنة.

يقول عليه السلام:

"لا يشيرن أحدكم إلى أخيه بالسلاح، فإنه لا يدرى لعل الشيطان ينزع في يده. أى يدفعه إلى الجريمة.."

ويقول:

"من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه، حتى ينتهي.."

ويعُن في استبعاد كل أسباب العداوة فيقول:

"إذا مر أحدكم بمجلس أو سوق، وفي يده نبل، فليأخذ بنصالها - لا يخدش بها أحداً.."

\* \* \*

## ... والعمل لشريعته

٦٧

ويصون "محمد" الأعراض بالعزم الذي يصون به حرمة الأنفس والحياة..  
و "محمد" في هذا نبأ يعني عن كل استطراد..  
ذات يوم أقبل عليه سائل يسأله في صراحة العربي وجرأته طامعاً في أن  
يجد للزنا رخصة.. فهو فحل لا يستطيع أن يُغالب في نفسه شبقها إلى النساء...!  
رغبة عجيبة حقاً - لا سيما حين يتقدم بها صاحبها إلى رسول..!  
ولكن "محمد" يكشف في هذه الواقعة عن فلسفته تجاه خطية الزنا..  
بل تجاه الخطايا كلها فإذا خطية الزنا جرم لأنها عدوان.. لأنها ظلم..  
لقد استدنى الرجل منه، وربت على كتفه وقال والضياء يكسو وجهه، ملقياً  
على الرجل سؤالاً:

"تحب الزنا لأمك.."

"قال الرجل: لا.."

"تحبه لزوجك؟؟".

"قال الرجل: لا.."

"تحبه لأختك؟؟".

"قال الرجل: لا.."

"تحبه لبنتك؟؟".

"قال الرجل: لا.."

"فقال الرسول: كذلك الناس - يا أخا العرب - لا يحبونه

"لأمها THEM، ولا لزوجاتهم، ولا لأخواتهم، ولا لبناتهم...!!"

من كان يعرف في تلقين الأدب، وبث الفضيلة، طريقة أمثل، وأروع من

هذه، فليأتنا بها..!!

قال الرجل: وقد بهره الحجاج، وأقنعه المنطق: إذن فادع الله لي كى يحب إلى

## — انسانيات —

٦٨

العفة، ويُكره إلى الفسق...!!

فوضع الرسول ﷺ كفه الحانية على صدره ودعا له، يقول الرجل: "والله ما إن قال رسول ما قال، حتى انصرفت عنه ولا شيء أبغض إلى نفسي من الزنا..!"

أجل.. كل عدوان عليك، أو على أحد من معك، لا ترضاه لنفسك، ولا ترضاه لهم. وجب عليك أن تتتجنب إيقاعه بغيرك وهذا هو الميزان، والمعيار.. ولللامال في حياة الناس أهمية بالغة.

والحاجة إليه، والتزاحم عليه - كثيراً ما يثيران الخصومة، والحدق والعدوان. وهنا يقف "محمد" ﷺ حارساً العدل من كل افتیات يُفضي إليه التزاحم والمنافسة والطمع - ويقف عند الحقوق المالية وقفه بارة طويلة. تأملوا هذا الحديث جيداً:

"لَئُونَ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ. حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاءِ الْجَلُحَاءَ مِن الشَّاءِ الْقَرْنَاءِ.."

أى حرص على الناس يمكن أن يُعبر عنه فى توکيد صارم أروع من هذا التعبير..

وللتتأمل هذا الحديث أيضاً:

"مِنْ ظُلْمٍ قَيْدٌ شَبَرٌ مِنَ الْأَرْضِ طُوقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ.."

وكل حيلة لسلب الحقوق، عمل غير صالح. وذرایة اللسان، وذلاقة الحجة، إذا توسل بهما أمرؤ لأخذ ما ليس له بحق، فقد باع بإثم كبير.

يقول الرسول ﷺ محذراً أصحابه:

## — .. والعمل للشريعة —

٦٩

إنما أنا بشر.. وإنكم تختصمون إلى، ولعل بعضكم أن يكون  
الحق بحجه من بعض فأقضى له بنحو ما أسمع.. فمن قضيت له بحق  
أخيه فإنما أقطع له قطعة من النار.."

ويعلن "محمد" أن اللقمة الحرام تفسد العبادة نفسها، وترد الأعمال الصالحة  
تراباً في تراب.

إنه يقول لسعد بن أبي وقاص:

"يا سعد: أطب مطعمك، تكون مستجاب الدعوة، فوالذي نفس  
محمد بيده: إن العبد ليقذف اللقمة الحرام في جوفه، ما يتقبل منه  
عمل أربعين يوماً.. وأيما عبد نبت لحمه من سحت فالنار أولى به.."

ويقول عليه السلام:

"إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً.. وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به  
المرسلين، فقال: ﴿يَأَيُّهَا الْرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَلِحًا إِنِّي  
بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾. وقال: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ  
مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾. ثم ذكر الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر، يمد يديه  
إلى السماء، يا رب، يا رب. ومطعمه حرام، ومشريه حرام، وملبسه  
حرام، وغذى بالحرام! فلما يستجاب لذلك" ٦٦

ويضع الأمانة، وعفة الطعمة في موضع تتضاءل دونه الدنيا بما فيها، فيقول  
عليه الصلاة والسلام:

"أربع إذا كنْ فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا: حفظ أمانة..  
وصدق حديث.. وحسن خليقة وعفة في طعمة.."



ويزيل الغشاوة عن أعين أولئك الذين يغبطون المتخوضين في أموال الناس على ما هم فيه من ثراء باطل، ونعمة كاذبة، فيقول عليه السلام:

"لَا يُعْجِبَنَّكَ رَحْبُ الْذِرَاعِينَ بِالدَّمِ - أَى الْقَاتِلِ - وَلَا جَامِعُ الْمَالِ مِنْ غَيْرِ حَلَّهُ، فَإِنَّهُ إِنْ تَصْدِقَ بِهِ لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ، وَمَا بَقِيَ كَانَ زَادَهُ إِلَى النَّارِ"

\* \* \*

"لَأَنْ يَأْخُذَ أَهْدِكُمْ تُرَابًا، فَيُجْعِلَهُ فِي فِيهِ - خِيرَ لَهُ مِنْ أَنْ يَجْعَلَ فِي فِيهِ مَا حَرَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ".

وقد يتصور الناس أن الظلم المتمثل في اغتصاب الأموال، مقصور على أموال الأفراد..

كلا، وإن أموال الأمة لأشدُّ عند "محمد" حرمة، وإن ليجلجل بالذير في وجوه الذين يعيشون في هذه الأموال، يسرقونها ويختلسونها.  
إن كل الطاعات والفضائل لتعجز عن محى خطية السرقة من مال الأمة.  
لنقرأ هذا النبأ الرهيب:

"كَانَ لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ غَلامٌ يُقالُ لَهُ مَدْعُومٌ، وَفِي إِحْدَى الْغَزَوَاتِ أَصَابَهُ سَهْمٌ وَهُوَ يَحْطُطُ رَحْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَمَا تَرَكَ.."

"وَجَاءَ أَصْحَابُ الرَّسُولِ ﷺ يَعْزُزُونَهُ فِي خَادِمِهِ، وَيَقُولُونَ: هَنِيَّا لَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ لَقَدْ ذَهَبَ شَهِيدًا وَلَكِنَ الرَّسُولُ أَجَابَهُمْ قَائِلًا.."  
"كلا، إن الشملة التي أخذها من الغنائم يوم خيبر، لتشتعلُ عليه ناراً..."

شملة تساوى بضعة دراهم.. أخذها هذا الغلام خفية أو خلسة يوم خيبر..

## — .. والعمل لشريعته —

٧١

ثم ها هو ذا يموت شهيداً..

ولكن استشهاده هذا، لم يدفع عنه غائلة إثمه القديم. لأنه كان إثماً عظيماً  
باهظاً.. وعدواً غير مشروع على مال الناس، مال الأمة.. لكنها شملة لا تساوى  
شيئاً؟؟..

أجل.. ولكن تقدير "محمد" ﷺ لحرمات الحق، والعدل، والأمانة لا تعرف  
في هذا المجال تفاوتاً ولا مفاضلة ..

ذات يوم رجع إلى المدينة أحد الولاة، وذهب ليقدم للنبي الأموال التي  
جمعها من الزكاة .

قدم بعضها وقال: هذا لكم.. واحتجز بعضها الآخر وقال: وهذا  
أهدى إلى..

وفي الثو والناس مجتمعون في مسجد رسول الله ﷺ نهض الرسول ﷺ  
وصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

"أما بعد فإنني أستعمل الرجل منكم على العمل مما ولاني الله،  
فيأتي فيقول. هذا لكم.. وهذا هدية أهديتها إلى؛ أفلا جلس في بيت  
أبيه حتى تأتيه هديته إن كان صادقاً.. والله لا يأخذ أحد منكم  
شيئاً بغير حقه إلا لقى الله تعالى يحمله يوم القيمة .."

وهكذا يقطع محمد الطريق على السرقات الهاوية من الأبواب الخلفية.. "إ"  
السرقات التي تؤخذ، متغيرة في ثياب هدايا. وهي في مخض واقعها من شر  
ألوان الرشوة والسرقة والانتهاب .

\* \* \*

هذا هو العدل فيما نفعل ..

أما العدل فيما نقول، فقد استوصى به الرسول خيراً.. وحُلَّ الألسنة



مسئولة كبرى في إقرار العدل والحق ..

ولاء "محمد" ﷺ لعدل الكلمة يتمثل في عبارة موجزة قالها.. تلك هي:

"ال المسلم من سلم المسلمين من لسانه ويده .."

هذا هو الإسلام، كفُّ اليد واللسان عن ظلم الناس وأذاهم وكف اليد،  
يعنى دحض كل أعمال العدوان المادى على حياة الناس، وأجسامهم، وأموالهم،  
وأعراضهم ..

وكف اللسان، يعنى درك كل عدوان ملفوظ من غيبة ونميمة، ومنطق خلاب  
ينهبا أصحابه به الحقوق ..

ولما كانت شهادة الزور من مظالم اللسان التي تضيئ بها الحقوق وتختفى بها  
معالم العدل، فقد صَبَّ عليها "محمد" ﷺ كل نعمة .

كنا عند رسول الله ﷺ فقال :

"ألا أنتكم بأكبر الكبائر؟ الإشراك بالله.. وعقوق الوالدين..

ـ وشهادة الزور، ألا وشهادة الزور، وقول الزور.."

"ـ وكان متكتئاً فجلس، وما زال يكررها حتى قلنا ليته  
ـ سكت.."

وعدوان اللسان، لا يقف عند شهادة الزور، ولا عند الحديث المنمق الذي  
يلبس الحق بالباطل.. بل إن كل كلمة مسيئة تعتبر عدواً ..

ولقد أوصى القرآن الناس قائلاً لهم: «إِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا».

وهكذا ركز الرسول على "عدالة القول" في شتى صورها. ولعله جمعها في  
ـ كلماته هذه :

"من كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ فليقل خيراً .."

## — .. والعمل لشريعته —

٧٣

"أو ليصمت .."

ويحدثنا سفيان بن عبد الله الثقفي فيقول :

"قلت: يا رسول الله حدثني بأمر أعتصم به .."

"قال: قل ربى الله، ثم استقم. قال: قلت يا رسول الله ما أخوف  
ما تخاف على؟ فأخذ بلسان نفسه، ثم قال.. هذا..!!."

ذاك جانب من العدل خفيٌّ ودقيق.. ولكن على من يخفى..؟ على "محمد"

الذى قال للناس: "من كنت جلدته له ظهراً فهذا ظهرى، فليقتد منه..!!!"

"محمد" .. الذى قدس العدل فرفعه فوق الميول والأهواء، واعتبره - كما  
علمه ربها - واجباً مفروضاً، لا تستخفه قرابة قريب، ولا يتجزء شناناً عدو..؟  
هنا يدرك "محمد" رسول الله خطر اللسان على العدل، وخطر الكلمة،  
جدها، وهزتها، فيقف من حصائد الألسنة موقعاً مترعاً بالفهم، وبالحزم.  
انظروا..

"إن الرجل ليقول الكلمة، لا يلقى لها بالاً، يهوى بها في النار  
سبعين خريفاً..!!."

كلمة، لا تلقى لها بالاً، قد يضيع بها حق إنسان، أو يتقصى بها قدره.. يظل  
وبالها عليك، وإنها مسكاً بخناقك أبداً بعيداً.

ذات يوم ذكر "الرسول ﷺ" زوجته "صفية" بخير، وكأنما مس الحديث من  
"عائشة" غيرة فأثارها.

وقالت: وماذا يعجبك فيها؟ إنها قصيرة..!!

تلك هي العبارة التي ألقتها عائشة، ولم تزد.. وإذا الرسول ﷺ يعقب عليها

فائلًا:



"ما زا يا عائشة..!! لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر

"مزجته..!!.."

إنه ساهر على المبدأ الذي فرضه عليه ربِّه، المتمثل في الآية الكريمة  
«وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا».

وعدالة القول تقضى ألا تفضي الكلمة إلى مساءلة - آية مساءلة - لإنسان -  
أى إنسان؟!!

حتى إذا تناولت الكلمة إنساناً بنيقتها هي فيه تكون قد جافت العدل  
وجانته.

سأله واحد من أصحابه يوماً..

"أرأيت إن كان في أخي ما أقول؟.."

فأجاب "محمد":

"إن كان فيه ما تقول، فقد اغتبته.. وإن لم يكن فيه ما تقول،

فقد بهته..."

\* \* \*

وينتقل "محمد" من "عدالة القول" إلى "عدالة الشعور".

وإنه يريد للناس أن ينطموا دائمًا على مشاعر عادلة، وأحاسيس نظيفة.

فإذا اعتديت على آخر بيده، فهذا ظلم.. وإذا اعتديت عليه بلسانك  
فهذا ظلم..

و "محمد" الإنسان يكشف ظلماً آخر لم نكن نعرفه.. ظلماً غير منظور.. بيد  
أنه سبب مباشر لكل ظلم منظور.. ذلكم هو ظلم الشعور..

## ... والخطال الشريعة

٧٥

إن مجرد انطوائك على مشاعر عدوانية تجاه الآخرين، يسلفك في عداد الظالمين.

وهذه المشاعر العدوانية، تمثل في آفات كثيرة، منها:

الحسد.. وسوء الظن.. والشماتة.. والاحتقار..

كل هذه الآفات - حتى إذا دارت داخل النفس والشعور، ولم تعبّر عن نفسها بعدوان فعلى.. يعتبرها "محمد" ظلماً..

وهو لهذا يتعقبها، محذراً منها، ناهياً عنها.

يقول عن الحسد:

"إياكم والحسد، فإن الحسد يأكل الحسنات، كما تأكل النار العشب.."

\* \* \*

"لا يجتمع في جوف عبد، الإيمان والحسد.."

\* \* \*

"ليس مني ذو حسد ولا نميمة ولا كهانة، ولا أنا منه.."

ولقد سئل عليه السلام يوماً من أصحابه:

"يا رسول الله أى الناس أفضل؟ فأجاب: كل مخموم القلب

صدق اللسان. قالوا: صدوق اللسان نعرفه، فما مخموم القلب؟ قال:

"هو النقي الذي لا إثم فيه ولا بغي، ولا غل ولا حسد.."

أجل.. إن سلامة الصدر تشكل عند "محمد" الإنسان العظيم والرسول

ال الكريم المع سمات الإيمان، وأجل أركانه ..



وإنه لدائم الحث عليها والتذكير بها، والإشادة بفضلها، لأنه يعرف دورها في إقرار العدل بين الناس. ونفي الظلم عنهم بصورة شاملة.

ذات يوم كان يجلس - عليه السلام - مع بعض أصحابه، فقال لهم: "يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة"، فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه ..

فصمم عبد الله بن عمرو، على أن يعرف عمل هذا الرجل الذي شهد له "الرسول" ﷺ بالجنة وبالخير على هذه الصورة ..

فاصطعن حيلة حتى بايته في داره ثلاثة ليال ..  
 فلم يجد له تعبداً يفوق الآخرين ..

وقبل أن يهم عبد الله بن عمرو بالرحيل عنه ذكر له مقالة "الرسول" ﷺ عنه، وسأله: إن كان له عمل صالح يخفيه، حتى استحق كل هذه المكانة .

فأجابه الرجل: "مالي عمل إلا ما رأيت.. أصلى كما يصلى الناس، وأتى من الطاعات ما يأتون.. غير أنني لا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه.. وأخذ مضجعى كل ليلة، وليس في قلبي حقد لأحد!!!"

هذا هو النموذج الذي رفعه "محمد" ﷺ لأصحابه مثلاً أعلى تهوى إليه الأفئدة.

رجل لا يمتاز عن الناس بكثير صلاة، ولا صيام.. إنما بسلامة صدر لا تعرف الحقد ولا الحسد..؟!

\* \* \*

وأما سوء الظن، فقد كافحه "الرسول" طويلا.

يقول عليه السلام:

"إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث.."

ويقول :

"إنك إن اتبعت عورات المسلمين أفسدتهم، أو كدت تفسدhem.."

إن الظن عند "محمد"، لا يشكل آفة سلبية، بل هو آفة إيجابية، لها في الإثم والعدوان دور إيجابي..

فمعته الظن بأنه "أكذب الحديث" يعني إخراج الظن عن مجرد كونه هممة نفسية، إلى حقيقة أنه تحريض فعلى، ومشروع في عدوان.

وتبعك عورات الآخرين، ولو بالظنون النفسية وحدها، سيجعلك تتخاذل منهم موقفاً سيئاً.. يجذبون عليه موقف سيئ مثله.. وبهذا تكون قد أفسدتهم، وأفسدت نفسك قبلاً.

ولما كان الظن يستتبع الفضول والتجسس، فقد أعلن "محمد" مقتنه له وأشجاره منه، قال في الحديث الذي نهى فيه عن الظن:

"إياكم والظن، فإنه أكذب الحديث. ولا تجسسوا.. ولا تجسسوا.."

وكان ينهى أصحابه عن أن ينقلوا إليه أخبار الآخرين فيقول لهم:

"لا تحدثوني عن أصحابي شيئاً، فإني أحب أن أخرج إليكم من شرح الصدر.."

الله أشرف خلقه!!

إنه بدلاً من أن يضع العيون على حركات الناس وخلجاتهم ليكون في مأمن من مكر الماكرين.. يغمض هذه العيون ويزجرها عن كل تجسس، وفضول..!

ذلك أن "محمدًا" إنما صادق مع نفسه، صادق مع تهجمه ورسالته..

## انسانيات ﷺ

٧٨

صادق مع حياته.. صادق في علاقاته بالناس وبالأشياء جميعاً.

\* \* \*

وأما الشماتة. فيقول عنها:

"لا تظهر الشماتة بأخيك، فيعافيه الله ويبتليك".

ويقول:

"من غير أخاه بذنب، لم يمت حتى يعمله"

ولنا أن نسأل: إن الشامت لم يعتد على أحد، فلم يعاقب..؟ إنه مجرد سرور  
نفسى واتاه حين رأى غريمـه فى مازق..؟؟

هذا عند "محمد" عدوان.. بل عدوان ينطوى على صغار، ودناءة..  
فعندما يكون الآخرون في مازق.. يكون واجبنا أن نخف إلى نجدهم،  
ونسارع إلى إنقاذهـم.. فإذا تخلينا عن هذا الواجب، فقد ألحـنا بهم من الأذى بقدر  
ما بخلـنا به من العون.. ثم زدنا مراـرة الأذى في أنفسـهم بما ضمنـاه من فـرح،  
وتـهلـل، وشـماتـة..

ولهـذا لم يكن من القصاصـ بد..

وهـذا معنى قول "الرسـول" العـظـيم:

"فيـعـافـيـهـ اللـهـ،ـ وـيـبـتـلـيـكـ..ـ"

وعـن اـحتـقارـ الآخـرـينـ نـهـىـ "مـحـمـدـ"ـ الإـنـسـانـ،ـ وـشـدـدـ فـيـ النـهـىـ.

يـقـولـ عـلـيـهـ السـلـامـ:

"إـنـ اللـهـ أـوـحـىـ إـلـىـ أـنـ تـواـضـعـواـ حـتـىـ لـاـ يـفـخـرـ أـحـدـ عـلـىـ أـحـدـ،ـ وـلـاـ  
يـبـغـىـ أـحـدـ عـلـىـ أـحـدـ..ـ"

\* \* \*

## .. والعطال للشريعة

٧٩

"ألا أخبركم بشر عباد الله؟ الفظ المستكبر."

ويرى في احتقار الناس أيّا كان قدر هذا الاحتقار شرًّا كبيراً يلحق بمرتكبه الأذى والوبال، فيقول:

"بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخيه.."

ويقدم على المخالفين في كلمات حامية فيقول:

بئس العبد.. عبد تخيل واحتال ونسى الكبير المتعال..

بئس العبد.. عبد تجبر واعتدى.. ونسى الجبار الأعلى..

بئس العبد.. عبد طفى وبغى.. ونسى المبدأ، والمنتهى.."

هكذا كافح "محمد" ﷺ الحسد، والظن، والشماتة، والاحتقار بوصفها مشاعر عدوانية. وبوصفها نوعاً من الظلم الخفي الذي يدور داخل النفس، ثم يفضي إلى مظالم خطيرة، وشروع كثيرة.

وفي كل مظاهر الظلم التي أسلفناها - المعلن منها، والمستخفى كان الحديث يدور حول ظلم الغير.. أعني الظلم الذي يقع على الآخرين.

ولقد رأينا كيف قاوم "الرسول" ﷺ ظلم الغير هذا، في كل مظانه ومصادره، وأشكاله - فعلاً كان أو قوله، أو شعوراً.

لكن ثمة ظلماً لا يحسبه الناس ظلماً.. ذلكم هو ظلم النفس.

فكثيراً ما نظن في حق ممتع "!" أن من حقنا إلحاق العطاب بأنفسنا ما دامت أنفسنا..

هذه نفسى.. وإذا لم أملك حق التصرف فيها، واللهو بها كما أشاء، فماذا يبقى لي من حق..؟؟..

أنت ظالم إذا فقأت عين إنسان آخر.. لكن إذا بدا لك لأمر ما أن تفتأ عينك

卷六

1

أنت.. فأى ظلم هنا.. أليست عينك، والأذى واقع بك وحدك.. فأين الظلم هنا،  
وكيف يكون ظلماً..؟؟

إن "محمدًا" هو الذي جعل العدل شريعته، والذي تعقب الظلم في أدق أشكاله، وأخفى مظانه - سيفسر لنا ظلم النفس هذا.

فَنَحْنُ هُنَا خَلْقُ اللَّهِ، وَاللَّهُ لَمْ يَخْلُقْنَا عَبْدًا، إِنَّا خَلَقْنَا لِيَحْقِّقَ بِنَا أَمْرًا عَظِيمًا.

فـ، كـ، لـنـةـ مـنـ بـنـائـاـ الـأـنـسـانـ، الشـامـخـ، أـعـنـهـ فـ، كـ، فـ، دـ، سـ النـوعـ

الشیعه.

والله سبحانه حين يصطفى من عباده من يرتادون للناس الطرق المجهولة.. لا يضع عينه على الضخام العظام ذوى الهامة والقامة والثراء والباس..

ولطالما انشق من الصنوف الخلفية أئباء ومرسلون وقادة ومصلحون..

الله، ذلك دليلاً على أن عامة الناس وصفوتهم في الميزان سواء؟ بلى.

فـ . ذلك أيضاً دليـ . علمـ . أن الفـ . دـ . الإنسانـ . له قـ . مـ . هـ .. أـ . يـ . كـ . انـ . ذـ . لـ . كـ . الفـ . دـ .

عالماً، أو، إقاً.. ملكاً، أو، كناساً..

وقيمة الفرد آتية من أنه ينطوى على سر نوعه الإنساني، ويحمل جزءاً من مشيته. ومن قدرته.

وأَتَيْهُ مِنْ أَنَّهُ خَلَقَ اللَّهُ الَّذِي لَا يَخْلُقُ عَيْنًا..

ومن ثم ، فهو لا يملك أن يتصرف في نفسه على هواه ..

وإذا بدا للذين يؤمنون بالله، أن يضعوا مكان كلمة "الله" كلمة "الطبيعة"

فإن التسخة لن تتغير .. فالفرد الإنسان، بوصفه جزءاً من الطبيعة، متضمناً سرها،

و مشتّتها وقدرتها، لا يلک أن يفوّت عليها فرصة وجوده والانتفاع به.

والانسان عند "محمد" ﷺ - عباد الله، ولكنه عبده الخير الرشيد يختار

رأيه، ويختار عقيدته، ويختار حياته «فَمَنْ شَاءَ فَلِيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلِيَكُفُرْ»

## — .. والعمل الشريعة —

٨١

و«كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ»، «وَلَا تَرُرُ وَازِرَةً وِزَرَ أَخْرَى» و«الإِنْسُنُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ».

وموقف "محمد" من الناس، موقف الناصل الأمين، فليس عليه إلا البلاغ، وفي أمر التكليف الذي ألقى عليه تبعات الرسالة، قال الله له: «وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَارٍ» - «إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ» - «لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ» - «إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ» - «إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَغُ».

وحين أراد "الرسول" عليه السلام أن يكافح ظلم الإنسان لنفسه شطر واجبه تجاه ذلك شطرين.

الأول، واجبه تجاه الإنسان كحياة.

والثاني، تجاه الإنسان كإرادة وسلوك..

أما الإنسان، كحياة فقد وقف "محمد" ﷺ موقفاً صارماً ضد ظلم الفرد لحياته.

حياتك ليست ملكاً لك إلا بالقدر الذي تحقق به إرادتك الحرة السوية - إرادة البناء لا المدم.

فإذا أردت أن تقوض حياتك بالانتحار مثلاً، فلتتعلم حيئذ أنها لم تعد حياتك، وليس من حقك أن تمسها بسوء.

إنك لا تعلم ما في هذه الحياة التي تريد أن تجهز عليها من خير..

قد يكون في صلبك عبقرى يتضرر ساعة الإنجاب والولادة.

ولو أن آباء الرواد الذين قادوا التاريخ الإنساني، وملئوه روعة ونفعاً.. لو أن آباء هؤلاء استجابوا لدعوى اليأس، وتخلصوا من الحياة، فأى ظلم كانوا



انسانيات

سيظلمونه للحياة وللناس، حين يذهبون وفي أصلابهم تلك العبريات التي  
هزت الوجود، ورعرعت الحياة..!!؟؟..  
لقد بدأ "محمد" مقاومة ظلم الإنسان لنفسه من هنا..  
من الانتحار..  
انظروا..

"من تردى من جبل فقتل نفسه، فهو فى نار جهنم يتربى خالداً  
مخلداً فيها أبداً.."

"ومن تحسّى - أى شرب سمًا - فقتل نفسه.. فسمه فى يده  
يتحسّاه فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً.."

"ومن قتل نفسه بحديدة، فحدیدته فى يده يتوجأ بها - أى يضرب  
بها - نفسه فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً.."

إنه وعید رهیب، لا ریب.

ولكن ألا تساوى الحياة أن يزجر الناس عن إزهاقها، بمثل هذا الوعید..؟؟..  
ويحدثنا جابر بن سمرة صاحب رسول الله ﷺ أن رجلاً أجهز على حياته،  
فلم يصل الرسول عليه.

\* \* \*

وكما يكون تقويض الحياة بترها، والإجهاز عليها، يكون أيضاً بتعطيلها  
وإحباط قواها..

وكما يكون الإنسان ظالماً لنفسه حين يقتلها.. يكون كذلك ظالماً لها حين  
يتركها للسوء والأفات.

وهنا يقف محمد ﷺ وقفـة كلها ولاء للحياة، وكلها بر بإرادة الإنسان،  
وبالسلوك الإنساني..

## .. والعمل شريعته

٨٣

وهنا أيضاً - تتضح الوجهة القوية ل موقف "محمد" من الآثام.  
ففي سبيل الحيلولة بين الإنسان وظلمه لنفسه قاوم "محمد" الرذائل  
والآثام.

لأن الإثم ظلم للنفس، بل هو من أكثر أنواع الظلم تنكرًا وأشدها وبالاً..  
أجل - هكذا ينبغي أن نفهم موقف "محمد" من الخطيئة.  
 فهو لم يرد قط أن يتحكم في الإرادة الإنسانية. ولا أن يسوق الناس سوق  
القطيع ..

إنما أراد أن يمكنهم من وسائل الغلب والتفوق.

وهو حين ينهى عن الرذائل، ويشدد في النهي عنها. إنما يفعل هذا لما يعرفه  
 تماماً من ضراوة الرذائل الفاتكة، وقدرتها على تعويق الكمال الإنساني وإحباط  
مسعى الإرادة إلى الخير والارتقاء ..

على أنه في نهيه وزجه عن الإثم، لم ينس لحظة واحدة، تلك الظروف  
الكثيرة التي تجعلنا آثمين ..

فكان مثله مثل الوالد الحنون الذي يصر طفليه يسيط كفه الغضة إلى حرة  
متوجهة ليلاً بها ويلعب.

إنه يزجره في عنت.. ولكن وراء هذا الزجر حنان دافق...!!  
وما كان "محمد" رسول العدل والرحمة، أن يترك هذا اللون اللدود من  
الظلم - ظلم الإنسان نفسه باقتراح الآثام، دون أن يجنبه هذا الظلم ويحذر عقباه.  
وهكذا مضى يحذر، وينذر، ويعلم..  
إنه يدعونا إلى الطاعة والخير.

ويدعونا إلى التوبة دوماً، لأننا على الدوام عرضة للزلل.  
يقول عليه السلام:



"يأيها الناس توبوا إلى الله، واستغفروه، فإنني أتوب إليه في  
اليوم مائة مرة.."

وهو يرسم صورة للفضيلة الصادقة:

"أن تعبد الله، كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك.."  
"اتق الله حيثما كنت.. وأتبع السيئة حسنة تمحها.. وخلق الناس  
بخلق حسن.."

"إن الله تعالى يغار. وغيره الله أن يأتي المرء ما حرم الله عليه.."

"الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت.. والعاجز من أتبع  
نفسه هواها، وتمنى على الله الأمانى.."

ويقول عليه السلام:

"حفت النار بالشهوات، وحفت الجنة بالمكاره.."  
"يتبع الميت ثلاثة: أهله، وماليه، وعمله، فيرجع اثنان، ويبقى  
واحد: يرجع أهله، وماليه ويبقى عمله.."

"كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبي، قيل: ومن يأبى يا رسول  
الله؟ قال: من أطاعنى دخل الجنة ومن عصانى فقد أبي.."

وتتوالى أحاديث "محمد" ﷺ وكلماته داعية إلى الفضائل واحدة واحدة،  
ونهاية عن الرذائل، رذيلة رذيلة.

وهو في كل هذا يهدف كما ذكرنا من قبل إلى إقرار العدل والسلام بين  
الإنسان ونفسه - بتجنبه الآثام التي يظلم بمقارفتها ذاته.  
لقد خص الدين في كلمة واحدة فقال:

"الدين، النصيحة.."

## .. والخطال شريعته

ولقد نصح عليه السلام أوفي ما يكون النصح الصادق، الأمين.

\* \* \*

هذا موقف "محمد" مع العدل.. بعد موقفه من الرحمة.

والآن إلى مجال آخر من مجالات إنسانيته الباهرة..





## الفصل الثالث

.. والقلب فصلته

... ولا تؤمنوا ، حتى يحابوا



"محمد" مُحبٌ، ودود..!

أطاع الله كثيراً؛ لأنَّه أحبَّه كثيراً.. وبرَّ الناس كثيراً؛ لأنَّه يحبُّهم كثيراً.. وأقبل على الفضائل والواجبات جذلَّاً مبتهجاً، لأنَّه أحبَّها وأحبَّ من كلِّ قلبه الطهر، والنقاء..

وهذا هو سرُّ تفوق عظمة "محمد" .. إنه أحبَّ عظامِ الأمور، ومارسها في شغف عظيم، مارسة محب مفطور.. لا ممارسة مكلف مأموري!!  
ووراء كلِّ سلوكه ومواقفه وحياته نجد الحب..

إذا سجد وأطّال السجود، وسمِعَ وجيبُ قلبه، ونشيَّجَ تضرعه وبكائه..  
فذاك لأنَّه في غمرة شوق جارف، ومحبة آخذة.

ولهذا، كان يتَّظر الصلاة على شوق.. فإذا جاء ميعادها قال لمؤذنه: "أرْحنا  
.. بها.. يا بلال..!"

أجل.. أرْحنا بها.. لا أرْحنا منها..!!

وهذا هو الفارق بين الحب، والواجب .

إن الواجب قد يؤذى على كره ومضض.. أما الحب فیأخذ طريقه إلى أشقر الأمور في ابتهاج وغبطة .

وإذا شغل نفسه وباله بأمور الناس، وجد في هذا الشغل لذة العاشق ونشوة المحب.. ذلك أنَّ عناء الواجب لم يَعُدْ له إلى روح "محمد" سبيلاً. لقد سيطر الحب وساد..

## انسانيات

وأصبحت الواجبات هواية.. لا، بل فوق هذا، وأجل من هذا.. صارت  
شعائر يُحبها، ويعشقها، ويأنس بها ومعها.

والحب عند "محمد" ليس شهوة.. إنما هو فطرة.

وفطرته تناسب ألفة، وتتفجر حبه.

هكذا كان طفلاً، وفتى، وكهلاً..

لم تقع عليه عين إلا أحبته وأسلمت قلب صاحبها لليام شديد.

ذلك أنه كان ينطوي على حب كبير - بل كان هو الحب كله.

فإذا رأه مبغض ثلاب. ذاب بغضه من فوره حين يمسه نفس واحد من

أنفاس حبه الجياش الدافئ.

ذات يوم أقبل عليه رجل فظ لم يكن رأه من قبل، غير أنه سمع أن "محمدًا"  
يسب آلله قريش والقبائل كلها، فحمل سيفه وأقسم ليسوين مع "محمد" حسابه..  
وبدأ حديثه عاصفاً مزجراً.. "والرسول" يبتسم.. وتنطلق مع بسماته  
أطیاف نور آسر.. وما هي إلا لحظات، حتى انقلب المغيظ المتهجم. محباً يكاد من  
فرط الوجود والحياة يذوب، وانكفاً على يدي "محمد" وقدميه يقبلهما،  
ودموعه تنحدر في اثنين مُتدارك ..

ولما أفاق. قال :

"يا "محمد": والله لقد سعيت إليك، وما على وجه الأرض  
أبغض إلى منك، وإنني لذاهب الآن عنك، وما على وجه الأرض  
أحب إلى منك.."!!

ماذا فعل "محمد" بقلب الرجل وروحه..؟؟

لا شيء..

لقد أحب "محمد" الرجل من كل قلبه، فخر جبروته صريح حب وديع..

## — .. الْحُبُّ فِطْرَةٌ —

و "محمد" لا يتكلف الحب، بل لا يبذل إما يبذل الحب عند "محمد" نفسه!!

و قلب "محمد" مفتوح دائمًا لكل الناس - الأصدقاء، والأعداء..  
والذى حدث عندما اقترب ذلك الرجل منه، أن مسته شعاة من فيض  
قلبه الكبير..

معدورة قريش، حين لم تدرك هذا السر الجليل. فقالت: إن "محمدًا"  
ساحر..

ما رأه جبار إلا لأن عوده من فوره ..  
وما أكثر الذين أقبلوا عليه ليزجروه، ويفتنوه عن دينه؛ فما هو إلا أن  
يُعانقهم منه نظرات عينيه الحانيتين حتى يدخلوا في دينه فرحين!!..  
ومن هؤلاء كان "عمر بن الخطاب" ..  
ألم يذهب إليه متضيًّا سيفه، والناس يتواكبون من كل مكان ليشهدوا الواقع  
الكبير .

ولكن "عمر" الجبار ذاب ك قطرة ماء امتصتها قطعة من السكر..  
ذاب حتى قبل أن تقع عليه عين "محمد" ذاب عندما وقعت عيناه على  
آيات من القرآن أودعها "محمد" وهو يتلوها، نبض حبه، وصفاء روحه، واقتدار  
مودته ..

\* \* \*

"محمد"، محب ودود.  
والحب عنده طبيعة، وفطرة، لا غرض وشهوة..  
من أجل هذا، كان يبذل حبه في سخاوة نفس نادرة النظير.  
أحب الله.. وأحب الناس.. وأحب الزمان، والمكان، وأحب كل شيء في



كون الله الرحيب..

و حين نتبع الحب في حياته وفي أحاديثه، نجده قد اتسع لكل شيء وأحاط بكل شيء.

لقد بدأ فأحب ربه حباً عظيماً.

والله - عند "محمد" - هو بارئ الحياة كلها والأحياء جميعاً. فكل حب له هو في الوقت نفسه، حب للحياة وللأحياء .

ذلك أن الله عند "محمد" وفي عقيدته، ليس أسطورة مثالية ولا رمزاً جيلاً.. إنما هو حقيقة، بل هو الحقيقة الكبرى .

وإن الجلال المهيوب الذي يتبدى عن الكون العظيم ليقمع قلب "محمد" ﷺ بالحب والتقديس خالق الكون ومبده .

وإنه ليهيم حباً، ويتفجر شوقاً.

ذات يوم وهو في الطائف، حديث عهد بدعوه - سلط عليه أعداؤه بعض السفهاء، فانطلقو وراءه يحصبوه بالحجارة.. فأوى منهم إلى حائط يتقي به الحجارة المقذوفة.. واستجاشت المخنة نفسه، فهطلت دموعه وكأنما كانت الحجارة تلقى في بحيرة ساجية ساكنة، فأثارتها، وأهاجت ماءها العذب الوديع.

أجل.. لقد جاشت نفس "محمد" ﷺ بما تنطوي عليه من حب، وشوق..

فرفع بصره إلى سماء ربه ومحبوبه، وقال :

"إن لم يكن بك غضب علىّ، فلا أبالى"

الله أكبر..

إن "محمدًا" ﷺ لا يخشى العذاب، ولا الألم إلا إذا كان تعبيراً عن تحلى الله عنه.

أما إذا لم يكن الله غاضباً، ولا عاتباً، فمرحباً بالألم.. ومرحباً بكل ما يكيد به

السفهاء ..

## — .. والحب فطرة —

"إن لم يكن بك غضب على فلا أبالي .. !!!"

وفي اللّتو واللحظة يدرك "محمد" أنه لا ينبغي للمحب الصادق في حبه أن يشغله استعذاب التضحية، عن رجاء العافية فيتبع ضراعته السالفة، بضراعة أخرى ويقول :

"ولكن عافيتك أوسع لي .."

إن الحب في غمار التضحية، شيء جميل.. ولكن الحب في غمار العافية أوفي وأجمل .

و"محمد" متوفر الاستعداد لأن يلاقي كل آلام الحب.. ولكنه شديد الشوق لمباحث الحب ..

ومباحث الحب تتألق في نطاق العافية.. فهو إذن ينشد العافية، لأنها تتيح له المزيد من الحب.. والمزيد من الطاعة لمن أحب ..  
وهكذا ناجى ربه تلك المناجاة الذكية :

"إن لم يكن بك غضب على، فلا أبالي.. ولكن عافيتك أوسع لي .."

إنه - عليه السلام - لم يقل "عافيتك أحب إلى" بل قال "عافيتك أوسع لي" .. ذلك أن المحب الصادق لا يختار لنفسه، ولا يمتنع عن إرادة المحبوب و اختياره. و"محمد" لا يحب بنفسه، ولا يحب لنفسه.. إنما حبه لربه "حقيقة" من خفقات الإرادة الإلهية وحدها !!

ذات يوم يدخل على ولده الحبيب "إبراهيم" وهو مسجى في فراش الموت.. ويتدفق حنان "محمد" غامراً مفيضاً، فلا يزيد على أن يقول وعيناه تبكيان:



"تدمع العين .."

"ويحزن القلب .."

"ولا نقول ما يسخط رب .."

أجل.. هذا هو حب "محمد" ربه ومولاه.. حب فوق مستوى النفس.. حب نابع من الله وعائد إليه.. حب يحرر صاحبه من كل ما يسخط محبوبه العظيم. ولطالما كان "محمد" يتشتى بهذا الحب.. بل هو دوماً مُتشتى به انتشاء كله يقظة وصدق.

يقول في بعض أحاديثه الكريمة:

"رأيت الليلة ربى في المنام فوضع يده بين كتفى، حتى وجدت بردَّ أنامله في صدرى .."

تأملوا بهذه الصورة .

"ووجدت بردَّ أنامله في صدرى .."

إنها تكشف عن طبيعة المشاعر والأحساس التي كان حب "محمد" لربه يعزف على أوتارها.

إنه يجد بردَّ أنامل الله في صدره ..

إن علاقته بالله، وحبه إياه بلغا من الشفافية والألق الذروة العليا.

وتتبدي الإيجابية في حب "محمد" لله. حين يتبتل له ويختب.. وحين يضع الصدق في العلاقة بالله موضع التقديس.

وإذ كان الرياء يعني فقدان الصدق في علاقتنا بالله.. فقدان الصدق يعني بدوره تهالك الحب وزيفه.. فقد شن "محمد" على الرياء هجمات ماحقة. ولم يكن ثمة رذيلة أبغض إلى نفسه الكبيرة منه .

## — .. والحب فطرته —

يقول للناس :

"إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى.. فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله .."  
"ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه.."

إنه يريد أن يكون حبنا لله خالصاً.. وأعمالنا في سبيله خالصة  
و "محمد" يجل العلاقة بالله إجلالاً يحمله على اعتبار الرياء شركاً.

يقول لأصحابه :

"إن أخوف ما أخاف عليكم. الشرك الأصغر.. قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: الرياء. يقول الله عز وجل إذا جزى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء..؟"

ويقول أيضاً:

"لا يقبل الله عملاً فيه مثقال حبة من خردل من رباء.."  
إن الإخلاص، هو الرنين الذي يكشف صدق الحب وزيفه .  
وحبُّ غير مفعم بالإخلاص، لا يكون حبًا على الإطلاق ولقد أحب "محمد" ربَّه، وعلم الناس كيف يحبونه .

\* \* \*

فإذا جئنا حب "محمد" الناس، وجدنا الدفء نفسه، والصدق نفسه. ونفس الوجدان العامر العظيم .  
انظروا ..

## انسانيات

إن "محمدًا" يحب الناس جميعاً..  
ومحمد ألقى إليه بكلمات الهدى والخير والفلاح .  
ومن ثم دفعه حبه للجميع .. لأن يبلغ هذه الكلمات الهادية للجميع :  
واستجابة الله له .. أو قولوا: اختاره الله لما كان هو يرغبه ويرجوه .. فأرسله  
للناس كافة .

فرسالة "محمد" تتمثل تبعات حبه للناس جميعاً.  
إن من يحب الناس حبًا صادقًا، يصير مسؤولاً عن مصايرهم .  
وهكذا حل "محمد" مسئولية حبه العظيم .  
إنه لم يحب عشيرته الأقربين وحدهم ..  
ولم يحب العرب وحدهم .  
بل أحب الناس جميعاً.  
وإذن، فليحمل المسئولية تجاه الناس جميعاً.  
وهذا هو معنى أنه رسول للعالمين .  
يقول المحب الودود عليه السلام:  
"بعثت إلى الأحرم والأسود.."

вшمول رسالته إذن، ليس مظهر سيطرة ولا طمعاً في نفوذ .  
إنما هو مسئولية الحب الذي فطر عليه محمد حب الناس جميعاً.. أحررهم  
وأسودهم .  
وليس أدل على هذا من قوله عليه الصلاة والسلام في حديث آخر:

"بعثت إلى الناس كافة.. فإن لم يستجيبوا لي، فإلى العرب.. فإن  
لم يستجيبوا لي، فإلى قريش.. فإن لم يستجيبوا لي، فإلى بنى هاشم..

## .. وَالْكَبْرِ فَطَرَهُ

فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِي. فَبَالَّى وَحْدَى.

بِاللَّهِ مَا أَرْوَعَهُ !!

إِنَّهُ لَيْسَ بِمُسِيْطِرٍ ..

إِنَّهُ حُبٌّ .. يَدْعُونَ مَنْ أَحْبَبُوهُ إِلَى الْخَيْرِ، فَإِنْ اسْتَجَابُوهُ فَمَا أَسْعَدَهُ بِهَذَا.. وَإِنْ لَمْ  
يَسْتَجِيبُوهُ فَقَدْ أَدَى الدُّرْسُ عَلَيْهِ.

وَلَقَدْ اتَّصَرَ حَبَّهُ الْعَظِيمُ الصَّادِقُ، وَبِلُغَ رِسَالَتَهُ لِلنَّاسِ جِيَعاً.  
وَيَدْعُونَ "مُحَمَّدًا" النَّاسَ كَيْ يُحِبَّ بَعْضَهُمْ بَعْضًا.. بَلْ يَجْعَلُ الْحُبَّ آيَةً لِلْإِيمَانِ،  
فَيَقُولُ:

"وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تَؤْمِنُوا.. وَلَا تَؤْمِنُوا،

حَتَّى تَحَابُّوا.."

وَيُعْنِي عَلَيْهِ السَّلَامُ، بِكُلِّ مَا مِنْ شَأْنٍ أَنْ يَنْعُشَ عَوَاطِفَ الْحُبِّ بَيْنَ النَّاسِ.  
ذَاتِ يَوْمٍ كَانَ يَجْلِسُ مَعَهُ رَجُلٌ مِّنْ أَصْحَابِهِ، فَمَرَّ بِهِمَا رَجُلٌ آخَرُ فَقَالَ  
جَلِيلُ النَّبِيِّ لَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنِّي أَحْبَبُ هَذَا الرَّجُلَ.  
فَسَأَلَهُ الرَّسُولُ: وَهُلْ أَعْلَمْتَهُ بِهَذَا..؟

قَالَ الرَّجُلُ: لَا..

قَالَ النَّبِيُّ: فَأَعْلَمُهُ ..

فَلَحِقَ الرَّجُلُ وَقَالَ لَهُ: إِنِّي أَحْبَبُكَ فِي اللَّهِ.

فَأَجَابَهُ صَاحِبُهُ: أَحْبَكَ الَّذِي أَحْبَبْتَنِي لَهُ..!!

وَوَضَعَ الرَّسُولُ ﷺ هَذَا تَعْلِيْمًا وَتَوجِيهًّا فَقَالَ:

"إِذَا أَحْبَبْتُمْ أَخَاكُمْ أَخَاكُمْ، فَلَا يَنْهَاكُمْ أَنْ تُحِبُّوهُ.

وَيَقُولُ :

## انسانيات

"إذا آخى الرجلُ الرجلَ، فليسألَه عن اسمِه، واسم أبيه، وممن هو، فإنَّه أوصَلَ للمودةَ".

والحبُ عند "محمد" مثوبَةٌ نفسَه..  
والمحبُ قد يدركُ بمحبه ما يعجزُ عن إدراكِه بعملِه.  
يسأله "أبو ذر" ذات يوم عن الرجل: يحبُ القوم ولا يستطيعُ أن يعمِّل  
عَمَلَهُم؟

فيجيبُه عليه السلام بعبارة الجامعة:

"أنتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ .."

أجل.. إنَّ الحبَ نسبٌ.

فإذا أحبَتَ خيارَ الناسِ، فأنتَ منهم وأنتَ معهم.. حتى إذا سبقوك في  
السعى، وتفوقوا عليك في العملِ.  
ويخلقُ "محمد" عليه الصلاة والسلام بالحبِ في الله تخلِيقاً عالياً حين  
يقولُ لنا:

"إنَّ من عبادَ اللهِ أَنَاساً، مَا هُمْ أَنْبِياءٌ وَلَا شَهِداءٌ، يَغْبَطُهُمُ الْأَنْبِياءُ  
وَالشَّهِداءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِمَكَانِهِمْ مِنَ اللهِ تَعَالَى .."

"قالوا يا رسولَ اللهِ، تخبرنا من هم.."

"قال: هُمْ قَوْمٌ تحابُّوا بِرُوحِ اللهِ عَلَى غَيْرِ أَرْحَامٍ بَيْنَهُمْ، وَلَا أَمْوَالٍ  
يَتَعَاطُونَهَا .."

"فَوَاللهِ إِنَّ وُجُوهَهُمْ لَنُورٌ، وَإِنَّهُمْ لَعَلَى نُورٍ، لَا يَخافُونَ إِذَا خَافَ  
النَّاسُ .. وَلَا يَحْزَنُونَ إِذَا جَزَنَ النَّاسُ .."

ثم تلا قولَ اللهِ تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا حَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا

## — .. وَالْحُبُّ فِطْرَةٌ —

٩٩

هُمْ سَخَزَنُونَ ﴿١﴾ .

والحب عند الرسول ﷺ، يمثل القاعدة الراسخة لسلوكه. وحين تفرض عليه وظروف القاهرة أن يبغض بعض الناس، فإن هذا البغض لا ينفصل عن قاعدة الحب ذاتها.. أعني أنه - عليه السلام - يبغض حين يكون البغض تعبيراً عن الحب، وولاء له.

فهو - مثلاً - يحب الحق.. وهذا الحب يقتضيه أن يبغض الباطل.

وهو يحب العدل، وحبه العدل يتطلب أن يكره الظلم.

وهكذا، فهو لا يبغض عن حقد أو ترة.. إنما يبغض حين يكون البغض " موقف دفاع" عن شيء يحبه..

وهو لا يحب لنفسه، ولا يبغض لنفسه، إنما تحدد قيمة العليا السامية، ما يحب وما لا يحب..

على أن بغضاءه هذه، عندما يكون موضوعها أنساً يستحقونها.. لم تكن ذات أصالة في طبيعته ولا في سلوكه.. بل مجرد سحابة رقيقة عابرة، لا تلبث شمس حبه أن تسطع أثرها مرسلة دفتها وسنها.

فها هو ذا يلقى من خصوم دعوته في قريش أشد الأذى، وأفتح المؤامرات. ولكن لا يكاد يدخل "مكة" ظافراً مؤيداً حتى يقول للذين أخرجوه منها، وكادوا له أعظم الكيد..

"اذهبوا فأنتم الطلقاء.."

لقد أبغضهم حين أخذوا على عاتقهم إطفاء نور الله ومقاومة قوى الخير والحق..

فلما زال عنهم بأسمهم الذي غرهم بالله، وحرضهم على الشر.. زالت

## انسانيات ﴿﴾

بغضاؤه لهم، وكأنها لم تكن...!!  
ولم يحمد الإنسان في هذا المقام توجيهه تناهى في السداد والفتنة.  
 فهو يقول:

"أبغض بغيضك هوناً ماً. عسى أن يكون حبيبك يوماً ما.."

\* \* \*

ولما كانت آداب الصحابة والسلوك مما يشد أصرة الحب، ويزكي مشاعر الود  
فقد أولاه "الرسول" ﴿﴾ عناية واهتمامًا، وتتبع دقائقها فأوصى بها خيراً.. وإنما  
لتنبه حقًا ونحن نطالع وصايا محمد في هذا المجال:  
اقرءوا:

"إذا كانوا ثلاثة .. فلا يتاجى اثنان دون الثالث، فإن

"ذلك يحزنه.."

أية إنسانية غامرة، تلك التي يتضمخ بها قلب "الرسول" الكبير.. !!؟؟؟  
إنه يوصي الأصدقاء.. إذا كانوا ثلاثة: ألا ينفرد اثنان منهم بكلمة سر، فإن  
ذلك يسىء إلى شعور الثالث، إذ يضنه، أو قد يضعه موضع الظننة وضعف الثقة به..  
وفي آداب الصحابة يقول كذلك:

"لا يقيمن أحدكم رجلاً من مجلسه ثم يجلس فيه.. ولكن  
توسعوا، وتفسّعوا، يفسح الله لكم.."

بل يقول، وما أروع ما يقول :

"لا يحل لرجل أن يجلس بين اثنين إلا بإذنهما.. ألم أقل لكم إنه  
تتبع دقائق آداب الصحابة، فجعلها شعائر..؟ وهو يعتز أيما اعتزار  
بتبادل التحية.."

## — .. وَالْكَبْرِ فَطَرَهُ —

وهاتان الكلمتان "السلام عليكم" تعنيان عند "محمد" شيئاً كثيراً وجليلاً.

يقول عليه السلام:

"إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم.. فإن أراد أن يقوم فليسلم.. فليست الأولى بأحق من الأخرى.."

ويحدثنا "كلوة بن الحنبل" فيقول :

"بعشى صفوان بن أمية إلى رسول الله ﷺ بهدية: فدخلت عليه، ولم أستأذن، ولم أسلم، فقال لي الرسول: ارجع، فقل : السلام عليكم، أدخل؟"

وحتى مع الأهل الذين نراهم دائماً، ونعيش معهم، يوصى عليه السلام، بالحرص على التحية.

يقول أنس رضي الله عنه :

"قال لي رسول الله ﷺ : يا بني.. إذا دخلت على أهلك فسلم، يكن سلامك بركة عليك وعلى أهل بيتك.."

ويُسأل "رسول الله" ﷺ ذات مرة:

- أى الإسلام خير..؟؟

فيجيب:

"تطعم الطعام.. وتقرأ السلام على من عرفت، ومن لم تعرف.."

ويقول عليه السلام:

"ثلاث يصفين لك ود أخيك: تسلم عليه إذا لقيته.. وتوسع له في المجلس.. وتدعوه بأحب أسمائه إليه.."

## انسانيات

وهو يقول أيضًا:

"تصافحوا، يذهب الغل.."

\* \* \*

والوفاء لا ينفصل عن الحب بحال.

وفاء "محمد" شيء باهر. يفوق كل ولاء؛ لأنه انعكاس حب عظيم،  
يفوق كل حب..

سئل يوماً، لماذا يجهد نفسه في العبادة، وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه  
وما تأخر..

فانظروا كيف كان جوابه؟

"أ فلا أكون عبداً شكوراً..!!!"

أصدق وأروع صور الوفاء لله..

"أ فلا أكون عبداً شكوراً..!!!"

وذات يوم زارتة بالمدينة سيدة عجوز، فخف عليه السلام للقائها في  
حفاوة بالغة، وغبطة حافلة، وأسرع فجاء بردته النفيسة وبسطها على الأرض  
لتجلس عليها العجوز..

وبعد انصرافها، سأله عائشة رضي الله عنها عن سر حفاوته فقال:

"إنها كانت تزورنا أيام خديخة.."

\* \* \*

وين غرفته في المسجد، ومكان المنبر، حيث كان يوم المسلمين في الصلاة،  
بعض خطوات.. كان يقطعها كل يوم عند كل صلاة..

## — .. والحب فطرته —

١٠٣

ولقد أحبها.. أحب هذه الأمتار من الأرض، لأنها كانت ممّشأه إلى الله..  
وإلى قرة عينه - الصلاة..

ولقد أخذه إليها مع الحب وفاء عجيب فكرمها وأجلها وقال:

"ما بين منبرى وبيتى، روضة من رياض الجنة.."

وكان يقول عن جبل "أحد":

"أحد" جبل يحبنا، ونحبه.."

\* \* \*

وكان - عليه السلام - وهو يخطب الجمعة قبل أن يتخد لنفسه منبراً، يقوم إلى جذع نخلة، فلما صنع المنبر، ووقف عليه "الرسول" لأول مرة أدار وجهه حيث الجذع الذي طالما وقف عليه من قبل، ودمعت عيناه.

وغادر منبره متوجهًا إلى الجذع في هيام جارف، واحتضنه.

ثم عاد وصعد المنبر.. ولما فرغ من الخطبة ومن الصلاة، أوصى أصحابه أن يضعوا الجذع في سقف المسجد حتى لا يستهلك في غرض آخر.. تكريماً له،  
وفاء!

يا بن عبد الله..

من مثلك، يجيد الحب.. ويجيد الوفاء؟؟

ولا إن هذا، لمشهد لا ينبغي لأحد أن يتطفل عليه بتعليق وكلام، فنقف  
 أمامه في انبهار وخشوع.. وهذا حسينا.

ولما كان الخصم عدواً على حياة الحب وأواصر الود. فقد نهى عنه  
"محمد" ﷺ وحذر منه، وأخبر الناس أنه لا يحل لأحد هم أن يهجر أخاه فوق  
ثلاث.



بل أنبأهم أن القطيعة إذا استطال أمدها، تكاد تصير جريمة قتل.

انظروا هذا الحديث العظيم:

"من هجر أخاه سنة، فهو كَسْفُك دمه.."

أجل.. إن القطيعة عند "محمد" "جريمة قتل" لأنها اعتداء على أعظم مقدسات الحياة - الحب!.

ويقول عليه السلام:

"كفى بك إثماً ألا تزال مُخاصماً.."

ولما كان الخصام يأتي أحياناً من الملاحقة والجدل المغرض، فقد أراد "محمد" أن يُنقى جو الحب والإخاء من هذه الشوائب جميعاً.

ذات يوم، كان أربعة من أصحابه هم: أبو الدرداء، وأبو أمامة، ووائلة بن الأسعق، وأنس بن مالك - جالسين يتجادبون ويتمارون، وعلى الرغم من أن جدالهم كان في شيء من أمر الدين إلا أن حدة الجدل غير مأمونة العاقبة. وهكذا. وبينما هم يتمارون خرج عليهم رسول الله ﷺ فغضب غضباً شديداً ثم قال:

"مهلاً يا أمة محمد.."

"إنما هلك من كان قبلكم بهذا.. ذروا المرأة لقلة خيره، ذروا المرأة فإن المؤمن لا يُماري، ذروا المرأة فإن المماري قد تمت خسارته.. ذروا المرأة فكفى بك إثماً ألا تزال ممارياً.. ذروا المرأة فإن المماري لا أشفع له يوم القيمة.. ذروا المرأة فإن زعيم بثلاثة أبيات في الجنة - في رياضها، ووسطها، وأعلاها - من ترك المرأة وهو صادق، ذروا المرأة فإن أول ما نهانى عنه ربى بعد عبادة الأوثان - المرأة.."

## — .. الْحُبُّ فَطَرَهُ —

١٠٥

رأيتم هذه الدمدمة على المراة؟؟

إن من ورائها ولاء "محمد" للحب، الحب الذي يرجو له الزيوع والسيادة. والذى يحاذر عليه من كل سوء يصيبه، أو زوبعة تهب عليه.

\* \* \*

وما يدوم به الحب بين الناس أن تكون للمعاذير عندهم حرمة، وللعرات من مغفرتهم نصيب.

ذلك أن من طبائع الحياة الاجتماعية بما تتطوى عليه من شد وجذب أن يتباين الناس، ويختلفوا، وينخطئ بعضهم فى حق بعض ..

و"محمد" لا يريد أن تكون هذه الأخطاء سبيلاً لعدم الحب .. ومن ثم أوصى بإقالة العترة وقبول المعذرة.

يقول عليه السلام:

"من أقال نادماً، أقاله الله نفسه يوم القيمة .."

ويقول :

"من أتاه أخوه متصلة - أى معتذراً - فليقبل ذلك محقاً كان أو مبطلاً، فإن لم يفعل - لم يرِد على الحوض .."

ويرسم عليه السلام صورة لشارار الخلق، وأكثرهم إغفالاً في الشر، فيقول:

"هم الذين لا يُقْبِلُونَ عَثْرَةً.. ولا يَقْبَلُونَ مَعْذِرَةً.. ولا يَغْفِرُونَ ذنْبًا..!!"

أى إنسان هذا الذى تتفجر من جوانب نفسه ينابيع بر لا ينضب لها معين؟؟

إنه "محمد" ..



انسانيات

إنه الحب الودود..

والآن، لنصح إلى "محمد" في كلماته الوضاء هذه:

"إن أحبكم إلى، أحسنكم أخلاقاً.. الموظفون أكناها.. الذين

يألفون ويؤلفون.."

" وإن أبغضكم إلى، المشاعون بالنعمة.. المفرّدون بين الأحبة..

الملتّسون للبراء العيب.."

أبغض الناس إلى "محمد" أكثرهم عداوة للحب..

هؤلاء الذين عبر عنهم بقوله "المفرّدون بين الأحبة".

ألا يشمُون أريج هذه الكلمات، وعطرها..؟؟..

ألا تسمعون عزفها، وموسيقاها..؟

ألا تبهرون عذوبتها وألقها..؟

انظروا..

"المفرّدون بين الأحبة".

"الأحبة"...

إن اختيار هذه الصيغة من صيغ الجمع لم يكن صدفة ولا اعتباطاً..

إن ما في كلمة "الأحبة" من رقة، وشفافية، وفيض حنان، تصور لنا عمق

إحساس "محمد" بالحب، وعظيم ولائه له..

وها هو ذا يخبر أن أحب الناس إليه، هم الذين يحبون. ويألفون، ويؤلفون..

وأن أبغضهم إلى نفسه، هم الذين يفرقون بين الأحبة.

ذات يوم أقبل عليه السلام على أحد أصحابه وقال له:

"يا أبا أيوب.."

## — .. وَالْكَبْرِ فِطْرَتُه —

١٠٧

ألا أدلك على تجارة..؟؟

ألا أدلك على عمل يرضاه الله ورسوله..؟؟

قال أبو أيوب: بل يا رسول الله..

قال له "الرسول" عليه الصلاة والسلام: صيل بين الناس إذا

تفاسدوا.. وقرب بينهم إذا تباعدوا.."

\* \* \*

هذا رسول، أحبَّ الحب؛ وأدرك قيمة دوره في حياة البشر.

فقال في الحب قولًا بليغاً، وسديداً..

وعاش حياته كلها محبًا، وودوداً..

عليه صلوات ربنا وسلامه .





## الفصل الرابع

والمسلمو لرفته

"أدبى رى فأحسن تأديبى"



يُروى عنه وهو طفل صغير - أن بعض رفاقه وأترابه جدوا في البحث عنه طويلاً - ذات يوم - حتى وجدوه بعد طول عناء جالساً في ظل حائط عند أطراف مكة. وهما به ليأخذوه معهم إلى سامر فيه زمر، وطلب، ولهو.. فهز الطفل الصغير رأسه معتذراً، وقال:

"أنا لم أخلق لهذا.."

\* \* \*

وبعد أن جاءه الوحي يدعوه إلى حل تبعاته كرسول للناس وبشير، ونذير - قامت زوجته خديجة رضي الله عنها ذات ليلة تلتمس مكانه. حتى وجدته أخيراً، مختلياً وحده ينادي ربه في إنجات عميق.

وخشيت خديجة على صحته من السهر الموصول، فاقتربت منه في رفق، وذكرته بحق جسمه في نوم يريحه، ويسد أزر العافية فيه، فأجابها "محمد" عليه السلام:

"انتهى عهد النوم يا خديجة..!!"

\* \* \*

وحين انتهى عمله على الأرض، وأدى الواجب الذي اختير لأدائه، وأكمل الله له دينه، وأتم عليه نعمته، مرض مرض الموت.

واذ هو راقد في فراشه وحوله بعض أهله، أخذته نشوة حبيبة..



وأطلق عينيه نحو السماء في حبور عظيم، وأخذ يقول:

"بل الرفيق الأعلى.."

"بل الرفيق الأعلى.."

وفاضت روحه، صاعدة إلى الرفيق الأعلى ! ..

"الرفيق الأعلى" .. هاتان الكلمتان اللتان ختم بهما "محمد" ﷺ كلامه في الدنيا - هما قصة حياته ..

وهما ليست كلمتين فحسب. بل الحقيقة الكبرى التي فتح "محمد" ﷺ عليها عينيه طفلاً وأغمضهما لحظة الموت وهو يلهم بها ويرددها في ولاء منقطع النظير.

لقد عاش "محمد" حياته كلها مع "الرفيق الأعلى" ..  
عاش مع الله .. وعاش مع المستويات الرفيعة التي حلّق عندها رسول الله ..  
وعاش مع القيم العليا التي آثرها على مناعم الدنيا وجاهها، وغرورها ..

وتناول "محمد" تبعاته بيد أستاذ عظيم ..

وهكذا اكتسبت تصرفاته بطابع كله سمو وجمال وجلال ..  
والسمو في حياة "محمد" يزدهر ويترعرع، كما تزدهر البذور وتنمو في مزرعة طيبة التربة، طيبة المناخ، ريانة بالماء ..

والسمو عند "محمد" ﷺ ليس جداً صارماً، ولا تقوى عابسة، ولا وقاراً مُكْفِهِراً ..  
إنما هي الأنافة ..

أجل - أناقة النفس، وأناقة الجسم .. وأنافة السلوك ..  
أنافة الكلمة التي ينطقها .. وأنافة الحركة التي يأتيها .. وأنافة النوايا التي يضمّرها ..

وبعبارة واحدة، أناقة حياته كلها.  
والأناقة في سلوك "محمد" ليست تكلاً، ولا محاولة.. إنما هي طبيعة  
تناسب تلقائياً، وتعبر عن نفسها في مزاج بسيط وعظيم..  
"محمد" يفرح بكل يوم جديد، لأنه سيزداد فيه سمواً، وصعوداً إلى  
الرفيق الأعلى..  
إنه يدعو ربه دائماً هذا الدعاء..

"اللهم آتني نفسى تقوها.. زكها.. أنت خير من زكاها.."

فتركيه النفس، مسأله الكبرى التي يعيش لها.  
وهو لا يزكيها بأى من تلك الوسائل التي تقوم على الانطواء والأنانية.. بل  
يزكيها وسط المuma..  
وفي ضوضاء الحياة اللحّيبة، وبين تناقضاتها المثيرة، يعمل "محمد" ليحرز  
السمو الذي قرر أن يضرب فيه رقمًا قياسياً بعيد المثال.  
ومن ثم، فهو لا يعمل لنفسه وحدها، بل للناس جميعاً..  
والسمو الذي أدركه لم يذهب به وحده.. ولم يخلفه ميراثاً مقصوراً على  
الأهل والأقرباء.. بل صار طريقاً عاماً للأجيال الآتية من قريب وبعيد.  
حين يتحدث "محمد" نبصر السمو والأناقة في حديثه.  
وحيث يعمل "محمد" نجد السمو والأناقة في عمله وتصرفاته.  
بل حتى حين اضطره أعداؤه لمنازلتهم، نجد السمو الرفيع في نزاله وضربه،  
 فهو يأمر الجيش المقاتل ألا يضرب إلا من يضره ويرفع عليه السلاح:

"لا تقتلوا امرأة، ولا وليداً، ولاشيخاً ولا تحرقوا نخيلاً  
ولا زرعاً.."



وحتى الذين يرفعون أسلحتهم وينخوضون الحرب ضد "محمد" ودعوته وأصحابه، ينهى عن التمثيل بهم. وينهى عن تشويههم ويقول لأصحابه: "اجتبوا الوجوه، لا تضريوها.."

والسمو عند "محمد" يتمثل في نشاداته الأكمل دوماً، والأفضل أبداً، كما يتمثل في تعلق إرادته الذكية بكل ما هو جليل ونافع .  
ها هو ذا يقول :

"إن الله يحب معالى الأمور، ويكره سفاسفها.."

ولقد أحب "محمد" معايى الأمور تأسياً بربه، واستجابة لفطرته وحين تتبع أدعية "محمد" التي كان يناجي بها ربه وخالقه، يكشف لنا غرامه الشديد بالسمو.. سمو النفس وسمو العمل .

فهو - في دعائه - لا يسأل الله مغنمَا خاصاً، ولا شيئاً من شهوات النفس..  
إنما يسأل دائمًا وسائل الارتقاء النفسي والسمو الأخلاقي .

"اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري.. وأصلح لي دنياي التي فيها معاشى، وأصلح لي آخرتى التي إليها معادى، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير.. واجعل الموت راحة لي من كل شر.." \*

"اللهم اغفر لي خطئي وجهلي، واسرافى فى أمري، وما أنت أعلم به مني.."

"اللهم اغفر لي جدى، وهزلى، وخطئى، وعمدى وكل ذلك عندي..."

"اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما

## — .. وَاللَّهُمَّ لِرَفْتَهُ —

١١٥

أنت أعلم به مني، أنت المقدم، وأنت المؤخر، وأنت على كل  
شيء قادر..

\* \* \*

"اللهم إني أعوذ بك من العجز، والكسل، والبخل، والهرم،  
وعذاب القبر.."

"اللهم آت نفسي تقوها. زكها أنت خير زكاها. أنت  
وليها ومولاها.."

"اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشى، ومن  
نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها.."

\* \* \*

"اللهم إني أعوذ بك من مُنكرات الأخلاق، والأعمال، والأهواء.."

\* \* \*

"اللهم ألمني رشدي، وأعذني من شر نفسي"

\* \* \*

"اللهم اكفي بحالك عن حرامك، واغتنى بفضلك عمن  
سواك.."

\* \* \*

"اللهم إني أسألك حبك. وحب من يحبك، وحب العمل الذي  
يبلغني حبك.."

"اللهم اجعل حُبَّك أحب إلى من نفسي، وأهلى ومن الماء البارد.."

\* \* \*



"اللهم إني أسألك الهدى، والتقوى، والعفاف، والغنى.." "يا حى يا قيوم برحمتك أستغفث. أصلح لى شأنى كله، ولا تكلى إلى نفسي طرفة عين.."

"اللهم إني أسألك الرضا، بعد القضا.."

"وأسألك بَرْدَ العيش بعد الموت.."

"وأسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك . فى غير ضراء . مُضيرة ، ولا فتنة مضلة وأعوذ بك اللهم ، أن أظلم أو أظلّم.. أو أعتدى ، أو يُعتدى على.. أو أكُسِّب خطيئة ، أو ذنباً لا تغفره.."

\* \* \*

"اللهم اهدنِي لأحسن الأعمال، وأحسن الأخلاق لا يهدى لأحسنها إلا أنت.. وقنى سيئ الأعمال، وسيئ الأخلاق لا يقي سيئها إلا أنت.."

\* \* \*

هذا نموذج للدعوات التي كان "محمد" يلح بها على ربِّه صباح مساء. كلها تدور حول السمو النفسي والسلوكي الذي كان "محمد" يعشّقه، ويعيشه، ويحياه.

لم يسأل الله جاهًا.. ولا منصبًا.. ولا ملکاً..

إما سأله الانتصار على ضعفه، والتفوق على نفسه.. وسأله أحسن الأعمال، وأحسن الأخلاق .

والكلمات التي صاغ منها دعواته، تكشف عن هُيامه العارم؛ وشوقه الكبير، وتعلقه الفذ بهذا السمو الذي دارت حوله كل أدعيته وابتهااته..

\* \* \*

وتبدأ رحلة السمو عند "محمد" باجتناب الشبهات، والترفع عنها..

## — .. وَاللَّهُمَّ لِرُفْقَةٍ —

١١٧

لنسمع له يقول :

"الحلال بين، والحرام بين، وبينهما مشبهات، لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه.. ومن وقع في الشبهات، وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى، يوشك أن يرثع فيه .."

وبحديثنا "وابصة بن عبد" فيقول :

"أتيت رسول الله ﷺ وأنا أريد ألا أدع شيئاً من البر والإثم إلا سألت عنه.."

"فقال لي اذن يا وابصة، فدنوت منه حتى مسست ركبتي ركبته، فقال لي .."

"يا وابصة: أخبرك عما جئت تسأل عنه" قلت يا رسول الله أخبرني.. قال جئت تسأل عن البر والإثم. قلت: نعم.. فجمع أصابعه الثلاث فجعل ينكت بها في صدرى، ويقول يا وابصة. استفت قلبك..."

"البر ما اطمأنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب.. والإثم ما حاك في القلب وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس، وأفتك.."

إن في كل ضمير إنسانى ما يشبه "حركة الرادار" تختلج وتهتز حين يوشك سلوكنا أن يرتعض بسيئة، أو ينحرف إلى ضلاله. وعندما يتبدى لنا هذا النذير، علينا أن نكف، ونغير الاتجاه ولا ننتظر حتى يقع الاصطدام، ونواقع الأخطاء. هذا هو ما يعنيه "تجنب الشبهات".



إن الخطأ الصغير يفضي إلى الخطأ الكبير.

و "محمد ﷺ" في سموه الذي يحيا به، ويدعوه، يحذر من الأخطاء الصغيرة لأنها آفة السمو والتلتفوت.

إنه يقول :

"دع ما يربيك، إلى ما لا يربيك .."

\* \* \*

"لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين، حتى يَدْعَ ما لا بأس به، حَذَرًا مما به بأس .."  
ويسائله سائل آخر عن الإثم فيقول له:  
"إذا حاك في نفسك شيء فدعه .."  
ويسائله عن الإيمان فيقول :

"إذا ساءتك سيرتك، وسرتك حسنتك فأنت مؤمن"

\* \* \*

هذا هو "النقد الذاتي" يقرره "محمد" ويجعله الميزان العادل، والقسطاس المستقيم .

وهذا "النقد الذاتي" بداية كل حياة صاعدة، وأساس كل تفوق واكتمال.  
ولكن هذا النقد لا ينبغي أن يجاوز مهمته فيتحول إلى سوط عذاب، وإلى ملامة دائمة تثير اشمئزاز الإنسان من نفسه، وتتنمى لديه الشعور الحاد بالإثم وبالدونية .

فهنا يقول لنا "محمد" عليه صلاة الله وسلامه:

"كل بنى آدم خطاء، وخير الخاطئين التوابون".

## .. وَاللَّمْوُ حِرْفَةٌ

119

كما أن نأىَ الرسول ﷺ عن الشبهات لم يكن يعني أنه متزمن، وأنه يمارس تقوى صارمة عابسة..

لا.. فمثل هذه التقوى يكون حظها من السمو الحق، ضحل وقليل..

إنما كانت تقوى "محمد" ﷺ تقوى فرحة، مفتوحة، ناشطة..

وسموه كان سمو العظماء بالفطرة، فلا تكلف، ولا صلف، ولا انطواء..

إنه ليمازح أصحابه في وقار، ويشجعهم على أن يمازحوه في وقار..

وإنه ليسافق زوجته عائشة في المسجد، فيسبقها مرة، وتسبقه مرة أخرى..

وإنه ليسأل عائشة يوماً، وقد زفت خادماً لها إلى زوجها - قائلًا:

"هَلَا بِعَشْتُمْ مَعَهَا مَنْ يَغْنِي لَهَا يَا عَائِشَةَ؟؟."

فتسأله عائشة.. يعني لها..؟؟..؟؟

وماذا يقول في غنائه يا رسول الله..؟؟..؟؟

فيجيبها، يقول:

"أَتَيْنَاكُمْ، أَتَيْنَاكُمْ .. فَحَيَوْنَا.. تُحَيِّبُّوكُمْ .

وَلَوْلَا الْحَنْطَةُ السَّمْرَاءُ .. مَا سَمِنْتُ فَتَايَاكُمْ .

وَلَوْلَا الْذَّهَبُ الْأَحْمَرُ .. مَا حَلَّتُ بِوَادِيكُمْ ..!!

وإنه - عليه السلام - ليتهجج ابتهاجاً عظيمًا، بالكلمة الحلوة الطيبة تقال له ..

أو تقال عنه..

جلس يوماً في فناء بيته يخصف نعله، على مقربة منه جلست "عائشة"

تطهو طعاماً.. ونظرت إليه فوجده يعاني خصف نعله في مشقة وكبد، وجبهه تتفصد عرقاً.. وأرادت أن تسليه، فقالت:

"لَكَانَكَ الْمَعْنُونُ بِقُولِ الشَّاعِرِ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَتَهَلَّ وَجْهُهُ، وَقَالَ: وَمَاذَا قَالَ يَا

"عائشة..؟؟"

قالت:

ومُبِرِّا من كُلِّ غُبْرٍ حِيْضَه  
وفساد مرضعة، وداء مُغْيَل  
إِذَا نَظَرَتْ إِلَى أَسِيرَه وَجْهَه  
برقة كُبُرَ القَاعِدَه المُتَهَلَّلَه

وإِذَا الرَّسُول يَضْحِكُ فِي جَذْلٍ عَظِيمٍ، وَيَغْمُرُه حَبُورٌ مُشْرِقٌ، وَيَقُولُ،  
وَقَدْ افْعَمْتَه النَّشُوَهُ:

"لَا فُضَّلَ فُوكُ يا عائشة.."

"لَا فُضَّلَ فُوكُ يا عائشة.."

وَإِنَّه لِيَجِيَّهُ يَوْمًا أَحَدُ الْمُسْلِمِينَ فَزَعًَا مِنْ هَوْلٍ خَطِيئَه ارْتَكَبَهَا فَيَقُولُ  
"الرَّسُول" فِي بَسَاطَه:

"هَلْ شَهَدْتَ مَعَنَا الصَّلَاةَ؟.."

"فِي جَيْبِهِ الرَّجُلُ: نَعَمْ.."

"فَيَقُولُ الرَّسُولُ: لَا تُرَعِّ.. إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبُنَ السَّيِّئَاتِ..!!"

وَيَتَهَلَّلُ وَجْهُ الرَّجُلِ، وَيَسْتَرِدُ ثُقْتَهُ بِنَفْسِهِ مِنْ فُورِهِ.

وَهَكَذَا كَانَ مُحَمَّد يَمْسِكُ بِمِيزَانِ التَّسَامِيِّ وَالتَّفْوِيقِ.

- احذِرْ الخطأً.

- فإذا غلبت على أمرك وأخطأت، فاحذر اليأس.

أجل..

- احذِرْ الخطأً..

- واحذر اليأس

- وامض في طريقك راجياً، صامداً، صاعداً..

## — .. والسمو لرفه —

١٢١

والسمو عند "محمد" ﷺ يعني إتقان العمل الذي تقوم به.

"إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يُتقنه.."

ويعني كذلك حُب الجمال - جمال النفس، وجمال العمل، وجمال المظاهر

والخبر:

"إن الله جميل يحب الجمال.."

ويعني البساطة، والتواضع، ونبذ الغرور:

"يأيها الناس: إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد.. ألا لا فضل  
لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أحمر على أسود، ولا  
أسود على أحمر إلا بالتقوى. إن أكرمكم عند الله أتقاكم.. ألا هل  
بلغت.."

\* \* \*

"من بطأ به عمله، لم يُسرع به نسبه.."

\* \* \*

والسمو كذلك يعني الصدق، ويتطله.  
الصدق مع أنفسنا، والصدق في علاقاتنا بالناس، وبالأشياء يقول عبد الله  
بن عمرو بن العاص:

"قلنا: يا نبى الله، مَنْ خير الناس؟ قال: ذو القلب المحموم،

واللسان الصادق.."

"قلنا: يا نبى الله، قد عرفنا اللسان الصادق، فما القلب

المحموم؟.."

## انسانيات

"قال: التقى الذى لا إثم فيه، ولا بغي، ولا حسد.."

"عليكم بالصدق: فإن الصدق يهدى إلى البر، والبر يهدى إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق، ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً.. وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدى إلى الفجور، والفجور يهدى إلى النار. وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً.."

\* \* \*

"كَبَرَتْ خِيَانَةُ أَخَاكَ حَدِيثًا، هُوَ لَكَ بِهِ مَصْدَقٌ،  
وَأَنْتَ لَهُ بِهِ كَاذِبٌ.."

"شر الناس ذو الوجهين، الذى يأتي هؤلاء بوجهه، وهم هؤلاء بوجهه.."

\* \* \*

والسمو أولاً، وأخيراً، يعني حُسن الخلق، والمعاملة الطيبة الممتازة للناس.  
يقول عليه السلام:

"ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيمة من حُلْقَ حُسْنٍ..  
وإن الله يبغض الفاحش البذىء"

\* \* \*

"إن المؤمن ليدرك بحسن الخلق درجة الصائم والقائم"  
"إن العبد ليدرك بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة، وشرف  
المنازل.."

\* \* \*

"إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم، ولكن يسعهم منكم بسط

## — .. والسمو حُرفة —

الوجه، وحسن الخلق.."

وأخيراً:

"ذهب حُسن الخلق بخير الدنيا والأخرة.."

ما أروع هذه العبارة الجامدة..

فالدنيا بما فيها من خير، والآخرة بما فيها من خير أعظم، يرجحُهما، ويتفوق عليهما حسن الخلق.

إن الكلمة الطيبة، والتصرف الوديع الطيب، ليبلغان بصاحبهما أشرف المنازل عند الله، وعنده الناس..

وهذا هو السمو عند "محمد عليه السلام" أن تمتلك ناصية نفسك، وزمام سلوكك، وأن يكون اسمك في أسماع الناس كنداء النجدة، لا كعويل العاصفة.. وأن تقوم علاقتهم بك على أساس من المحبة، لا الرهبة.. ومن الثقة، لا الشك.. ومن الطمأنينة، لا الفزع.

لقد بلغ "محمد" في سموه الأخلاقي مبلغاً لا يُطمع بعده في مزيد.. ومع هذا، فقد كان دائم الابتهاج إلى الله بهذا الدعاء..

"اللهم كما حسنت خلقى، فحسن خلقى.."

\* \* \*

ويتجلى سمو "الرسول" ﷺ في حفاظه الشديد على كرامة الكائن البشري ومراعاته الذكية لمشاعر الناس.

ذات يوم جيء إليه بسارق. وأقبل الشاهد الذي رأه يسرق، فقال:  
نعم رأيت هذا يسرق..

قال "محمد" رسول الله ﷺ:

"هلا قلت: رأيته يأخذ.."

انظروا الرجل.. وانظروا الإنسان..

إنه - عليه السلام - طالما تحدث عن السرقة، كجريمة، وعن السارقين كجناة..

ولقد أسمى السرقة: سرقة.. وأسمى السارقين - سارقين.

ولكن عندما يصير الأمر أمر فرد بذاته، والتهمة تلقى في وجهه، وفي مواجهته.. فهنا ينبغي أن تراعي مشاعره، لأنه قبل أن يكون مجرماً، فهو إنسان فيه أشياء كثيرة ينبغي أن ترحم، وأن تكرم.

وهكذا ود محمد لو أن الشاهد قال: "رأيته يأخذ" ولم يقل "رأيته سرق"! ..

أين نجد تكريماً للناس، ولمشاعرهم. وأين نجد حناناً صادقاً دافقاً مثل هذا التكريم، ومثل هذا الحنان..؟؟

هذه كانت شيمة "محمد" دائمًا.

لم يكن يواجه أحداً بأخطائه أمام الناس بل يقول:

"ما بال أقوام يفعلون كذا، وكذا.."

تاركاً الفاعل الحقيقي يحس ذنبه، ويعرف خطأه، دون أن يعرف الآخرون عنه شيئاً.

وذات يوم، وهو جالس مع أصحابه بالمسجد يتظرون الصلاة، وكانوا حديثي عهد بوليمة أكلوا فيها لحم جزور.. انبعثت في المجلس ريح غير طيبة. أدرك "الرسول" أنها من غازات الجوف، وتنفس الأمعاء..

وأدرك أن صاحب هذه الريح قد وقع في حرج شديد.. فالمفروض أنهم جميعاً متوضئون.. وبعد لحظات سيقومون للصلاحة، فإذا أراد ذلك الرجل المجهول

## — .. وَالسَّمْوَ لِرْفَتَه —

١٢٥

أن يقوم ليتوضاً، بان للآخرين أنه مصدر الريح الكريهة وفي هذا حرج له،  
وإخجال ..

وهنا أدار "الرسول" بصره على وجوه الجالسين جيئاً وقال :

"من أكل لحم جَزُور.. فليتوضاً!!"

قال أصحابه: كلنا أكلنا لحم جَزُور يا رسول الله.

قال: "إذن، كلكم يتوضأ"!!

وقاموا جيئاً للوضوء، ومن بينهم هذا الذي أنقذه من الخرج لباقة  
"محمد" ﷺ، وفطنته، ورقة إحساسه!!

أية شمائل سامية، هذه التي تعنى بكل دقة وصغيرة تمس شعور الناس،  
وأحساسهم!!؟؟؟

\* \* \*

إن سمو "محمد" ليس بيقل كل محاولة لوصفه، أو الإحاطة به.. وأعظم ما فيه  
أنه ابن الفطرة، ووليد السجية والبدية.  
وليس ثمة كلمات تستطيع تصوير سموه سوى كلماته هو التي قالها متحدداً  
بنعمة الله عليه:

"أَدْبَنِي رَبِّي . فَأَحْسِنْ تَأْدِيبِي .."





## الفصل الخامس

.. وَمَا لَكُلُّ النَّاسِ عِبْرَانِيَّةٍ

"تَنَامُ عَيْنَائِي، وَلَا يَنَامُ قَلْبِي.."



لنبأ بهذه القصة..

كان من بين أصحاب النبي ﷺ، صاحبى جليل هو "عثمان بن مطعمون"  
رضى الله عنه..

وكان عثمان متبلاً، غير مشفق على نفسه في العبادة، حتى لقد هم ذات  
يوم أن يخصي نفسه، ليتخلص نهائياً من نداء غريزة الجنس..

وذات مرة دخل الرسول على زوجته عائشة، فوجد معها بعض النساء،  
ووقدت عينه على إحداهم، وكانت ربة الهيئة مكتبة المحبة.

فسأل "محمد" عن أمرها، فقيل له: إنها زوجة عثمان بن مطعمون. وإنها  
تشكو بيتها وحزنها، فعثمان مشغول عنها بالعبادة - يقوم ليله، ويصوم نهاره..  
وذهب الرسول ﷺ حيث لقى ابن مطعمون، فقال له:

"أما لك بي أسوة.."

"قال: بأبي أنت وأمي. وماذا.."

"قال الرسول: تصوم النهار، وتقوم الليل؟"

"قال: إنني لأفعل.."

"قال الرسول لاتفعل.."

"إن لجسدك حقاً، وإن لأهلك حقاً.."

وامتثل "عثمان" نصيحة الرسول ﷺ وأمره، وقرر أن يؤدى حق أهله..؟!  
والآن، انظروا بقية القصة..

## انسانيات

ففي صبيحة اليوم التالي ذهبت زوجة "عثمان بن مظعون" إلى بيت النبي ﷺ عطرة، نصرة، كأنها عروس.. واجتمع حولها النسوة اللاتي كانت تجلس بينهن بالأمس، رثة بائسة.

وأخذن يتعجبن من فرط ما طرأ عليها من بهاء، وزينة.

قلن لها، ما هذا يا زوج ابن مظعون..؟؟

قالت: وهي تضحك من قلبها:

- "أصابنا ما أصاب الناس" .. "؟!"

\* \* \*

بالأمس، لم يستطع الرسول ﷺ على الأمر صبراً، حين رأى أمامه زوجة يؤرقها هجر زوجها، وتضيقها مراارة الحرمان، فخف لنجاتها، وذكر زوجها بما لها عليه من حق..

فما أن جنَّ عليها الليل، ثم طلع عليها صباح يوم بهيج، حتى كانت تزهو فرحة مطمئنة، تقول لصاحباتها:

- "أصابنا ما أصاب الناس" ..

أليس عظيماً، وقد أحاطت عظمته بكل شيء؟  
أليس إنساناً، وقد وسعت إنسانيته كل شيء؟ - هذا الرسول الذي تشغله وتهمه مشاكل الناس إلى هذا الحد، وإلى هذه الغاية..!!؟  
حقاً، إنه لرحمة مهداة.

وإنه - عليه الصلاة والسلام - ليجعل السهر على مشاكل الناس، والسعى حلها، عبادة من أفضل العبادات. وقربى من أزكى القربات.  
يقول في هذا المقام:

"لأن أمشي مع أخي حاجة، أحب إلى من أن اعتكف في"

مسجدى هذا شهراً.."

ويسأله سائل:

"يا رسول الله: أى الناس أحب إلى الله..؟"

"فيجيب عليه السلام: أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس.."

ويحضر الناس على التكافل حضاً لا ينقطع، ويرفع خدمة الناس إلى الذروة  
بين الأعمال الصالحة.

يقول عليه السلام:

"إن الله خلقا خلقهم لحوائج الناس، يفرز الناس إليهم في  
حوائجهم، أولئك الآمنون من عذاب الله"

إن زكاة الجاه، لا تقل شأنها عند "الرسول" ﷺ عن زكاة المال والثروة..  
والذين يخلون بجاههم، ويقدرونهم. ويقبضون جاههم ونفوذهم وجهدهم - عن  
مساعدة الآخرين ومساندتهم، ليسوا من الله في شيء، وما لهم بين الخيرين مكان.  
 وإنما الإنسان حقاً، المؤمن حقاً، هو الذي يكون للأخرين عوناً وناصراً.

يقول عليه السلام:

"من كان وصلة لأخيه إلى ذى سلطان في مبلغ بر، أو إدخال  
سرور، أو تيسير عسير، أعانه الله على إجازة الصراط يوم القيمة  
عند دحض الأقدام، ورفعه في الدرجات العلى من الجنة.."

بل إن الرسول ﷺ، ليり في خدمة الناس، نعمة من الله أنعمها على الذين  
يوفقون لها.

وهو لهذا يحذر من مللها، والسأم منها، حتى لا تزول..

يقول عليه السلام:

"إن لله أقواماً اختصهم بالنعم لمنافع العباد.. يُقرّهم فيها ما بذلوها.. فإذا منعوها نزعها منهم، فتحولها إلى غيرهم.."

بيد أنه الرسول ﷺ يريد هذه الخدمة خالصة، ويريد لها أمينة عادلة.  
فإذا شفعت لإنسان، وسرت معه في حاجته وقضيتها، فيجب ألا تأخذ  
مثوبة شفاعتك ومسعاك، رشوة محرمة..  
وأيضاً، يجب ألا يكون مسعاك له نوعاً من المخاباة الظالمه والتحيز الذي يضيع  
على آخر حقاً..

أعني - أن مساعدة الآخرين، يجب أن تتم في نزاهة كاملة فلا تتضرر عليها  
أجر المرتشى، ولا تساعد أحداً في نيل ما ليس له بحق..  
يروى عنه عليه السلام قوله:

"من شفع شفاعة لأحد فأهدى له هدية عليها فقبلها، فقد أتى  
باباً عظيماً من أبواب الكبائر"

إن "محمدًا" ﷺ أوصى الناس أن يتهدوا، وأخبر أن تبادل الهدايا فيما بينهم  
يشد آصرة الود والإخاء..  
ولكن عندما تصبح الهدية، رشوة متنكرة، فإنه يرفضها ويحذر منها على  
النحو الذي رأينا.

وأنت حين تشفع لأحد شفاعة عادلة. فإنك بهذه الشفاعة تؤدي زكاة  
جاهك، فإذا تقاضيت عليها مثوبة، ولو هدية.. كنت كمن يدفع لفقير زكاة ماله،  
ثم يتلاطف بديلاً، وعوضاً عنها!!

هذا موقف "محمد" من يأخذ على شفاعته وعونه أجراً..

أما موقفه من يحابي بشفاعته محابة تضييع حقوق الآخرين فها هو ذا:  
"من أعن ظلماً بباطل، ليدْحُض به حقاً فقد برئ من ذمة الله  
وذمة رسوله.."

\* \* \*

"مثُل الذي يعيّن قومه على غير الحق، كمثل بعير تردى في بئر،  
 فهو ينزع منها بذنبه.." "أى يحاول الخلاص دون أن يقدر عليه!!".

هكذا ينفي الرسول عن التكافل الإنساني كل خبث، ويحرره من كل غرض  
رخيص ودخيل.

ولما كانت حاجات الناس ومشاكلهم، لا سيما إذا كانت مشاكل جماعية،  
و حاجات اجتماعية - تتطلب قدرة لا تتوافر لغير أولى الأمر، والقائمين بالحكم..  
أقول، لما كان ذلك كذلك، فإن الرسول ﷺ جعل هذه الحاجات أمانة ووديعة  
بين أيدي الحاكمين.

فأما من يصون الوديعة منهم فهذه مثوبته:

"إِنَّ الْمَقْسُطِينَ عِنْهُ اللَّهُ عَنِ الْمَنَابِرِ مِنْ نُورٍ، عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ،  
وَكُلُّتَا يَدِيهِ يَمِينٌ.."

وأما من فرط، واحتجب عن الناس، وأهمل شؤونهم، فهذا جزاؤه:  
"مَا مِنْ أُمَّتِي أَحَدٌ وَلِيٌّ مِنْ أَمْرِ النَّاسِ شَيْئاً لَمْ يَحْفَظْهُمْ بِمَا يَحْفَظُ  
بِهِ نَفْسُهُ، إِلَّا لَمْ يَجِدْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ.."

\* \* \*



"ما من إمام يغلق بابه دون ذوى الحاجة والخلة، والمسكنة . إلا  
أغلق الله أبواب السماء دون خلته، و حاجته، و مسكنته .."  
"من ولى من أمر الناس شيئاً فاحتجب عن أولى الضعف  
وال الحاجة، احتجب الله عنه يوم القيمة".

\* \* \*

إن حمداً الإنسان البار الكريم، يزيف جميع العقبات من طريق الناس، ويفتح  
جميع الأبواب لتنفذ منها مشاكلهم وما سببوا .. حتى تلك الأبواب الضخمة  
المدججة بالحرس والرعب - يفتحها "محمد" ، ويأمر بإخلاء الطريق للضعفاء،  
وذوى الحاجة، حتى يقولوا كلمتهم للحاكم الذي عليه أن يسمعها وينصت لها،  
ثم ينجز ما تستحقه من رعاية وكفالة.

ولأنَّ رعاية الناس، وصون مصائرهم، هما وظيفة الحاكم، وهمما ثُبُّاب عمله  
وواجبه - حذر "محمد" أن توضع هذه المصائر في أيدي مرتاحفة، هزلية.  
يقول عليه السلام :

"من استعمل رجالاً من عصابة وفيهم من هو أرضى لله منه، فقد  
خان الله، ورسوله، والمؤمنين .."

أجل .. إن الأيدي القوية، النظيفة، العادلة، البارزة، هي وحدتها التي تؤمن  
على مصائر الحق، و حاجات الناس.

إن الحكم تضحية لا تجارة، وخدمة لا استعلاء .  
ولكتنا نحسبه زهواً، وعلوهاً؛ فنسارع إليه، ونرتقى عليه.  
لنتظر ماذا يقول "الرسول" :

"ليأتينَ على القاضى العادل يوم القيمة ساعة، يتمنى أنه لم

## .. ومشاكل الناس علّاكه ..

١٣٥

يقضى بين اثنين فى تمرة..!!

قاض عادل..؟؟

وئمرة..؟؟

فكيف بالظالم إذن..؟؟

وكيف بالذين يغتالون الحقوق، ويعصون المصاير..!! ولنقرأ هذا الحديث أيضاً:

"إن شئتم أنباءكم عن الإمارة..

أولها ملامة..

وثانيها ندامة..

وثالثها، عذاب يوم القيمة. إلا من عدل.."

كل هذا، يقوله "محمد" ﷺ حرصاً منه على مصالح الناس، وحضراً على التفاني في خدمتهم، وتوفير العدل والأمن والخير لهم .  
وكل ذي جاه يدخل بجاهه ..

وكل ذي سلطان يجور بسلطانه ..

فقد خان أقدسأمانة أوصى بها "محمد الأمين" .. ألا وهي: حاجات الناس  
وحقوقهم ومصايرهم .

"إن الله سائل كل راعٍ عما استرعاه، حفظ أم ضيئع.."

\* \* \*

كان "محمد" ﷺ شديد الاهتمام بالناس، حتى لقد كان يحرم نفسه، وأهله  
ليوفر للناس بعض ما هم إليه محتاجون .

وإذا كان قومه الذين يعيشون يومئذ بالمدينة، يعانون قلة في الرزق وشظفنا

## انسانيات

في الحياة؛ فقد جعل شعاره ونهجه أن يكون هو وأهله - أول من يجوع، إذا أصاب الناس مجاعة.. وآخر من يشبع، إذا أتى الناس شبع...! ولطالما كان ينهى ذوى اليسار أن يمسكوا فضل ما عندهم ويخزنوا فائض دخلهم.

يقول "أبو سعيد الخدري" رضي الله عنه :  
"بينما نحن في سفر مع النبي ﷺ، إذ قال لنا:  
"من كان معه فضلٌ ظهر - أي راحلة فائضة عن حاجته - فليعد به  
على من لا ظهر له، ومن كان له فضل من زاد، فليعد به على من لا  
زاد له.."

"ثم ذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد  
منا في فضل - أي فيما يزيد عن حاجته"

ويرفع "الرسول" ﷺ في هذا المقام مثلاً أعلى للناس كي يحذوا حذوه،  
فيقول:

"إن الأشعريين إذا أرملوا في غزو، أو قل طعام عيالهم بالمدينة -  
جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد، ثم اقتسموه بينهم في إناء  
واحد بالسوية، فهم مني، وأنا منهم.."

لقد كان "الرسول" ﷺ حريصاً على أن تكون طاقات المال والثروة في  
خدمة الناس جميعاً، فتحث على السخاء والبذل، وكرهاً إلى الناس الشح والاكتناز.  
يقول لأصحابه:

"آتُكم مالُ وارثه، أحب إلَيْهِ ماله.."  
قالوا: يا رسول الله، ما من أحد إلا ماله أحب إلَيْهِ" قال: فإن

ماله، ما قدم - أى أنفق وبدل - ومال وارثه ما آخر - أى ما اكتنز  
وادرخ.."

ويقول عليه السلام:

"ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان، فيقول أحدهما:  
اللهم أعط منفقا خلفا.. ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكا تلفا.."

ويضرب الرسول ﷺ مثلا، ويرسم صورة جميلة لفضل الله حين يغمر  
البازلدين، فيقول:

"بينما رجل يمشي بفلاة، إذ سمع صوتا في سحابة يقول: اسوق  
حديقة فلان. فتحتى ذلك السحاب فأفرغ ماءه في حرة - أى أرض ذات  
حجارة سود - فإذا شرجة - أى مسيل ماء - قد استوعبت ذلك الماء  
كله، فتبعد الماء، فإذا رجل قائم في حديقته يحول الماء بمسحاته..  
فقال له: يا عبد الله ما اسمك؟ قال: فلان. وهو الاسم الذي سمعه في  
السحابة.."

"فقال: ولم تسألني عن اسمى.."

"فقال: إنى سمعت صوتا في السحاب الذى هذا مأوه يقول: اسوق  
حديقه فلان، لاسمك. فماذا تصنع فيها.."

"فقال: أما إذا قلت هذا؛ فإنى أنظر إلى ما يخرج منها فأتصدق  
بثلثه. وأكل أنا وعيالى ثلثا. وأرد فيها ثلثا.."

إنه مثل جميل يضربه "محمد" ﷺ للناس، ليعلموا أن ما يبذلونه في سبيل  
التكافل الاجتماعي لا يذهب عند الله بددًا، ولا يضيع عليهم سُدًا.. وإنما ينميه  
الله لهم، ويرده عليهم معانم مضاعفة.

**انسانيات**

وذات يوم زاره بنو عمرو بن عوف، وكانت لهم حدائق واسعة تُمْسِي إلى "الرسول" أنهم أحاطوها بأسوار عالية، لتحول بين الناس وبينها، فقال لهم "الرسول" حين قدموا عليه.

"يا معاشر الأنصار: كنتم في الجاهلية. إذ لا تعبدون الله تحملون الكل؛ وتتعلون في أموالكم المعروف، حتى إذا من الله عليكم بالإسلام، وبنبيه، إذا أنتم تحصنون أموالكم..! يا معاشر الأنصار: فيما يأكل ابن آدم أجر.. وفيما يأكل السبع والطير أجر.."

ولم يكدر الأنصار يسمعون هذا القول من رسول الله حتى عادوا فهدموا أسوار حدائقهم..

ويقارن "الرسول" بين الباذلين والأشحاء مقارنة سريعة ولكنها فاصلة، فيقول:

"السخى قريب من الله؛ قريب من الجنة، قريب من الناس، بعيد من النار.."

"والبخيل بعيد من الله، بعيد من الجنة، بعيد من الناس، قريب من النار.."

ماذا يريد "محمد" بتوجيهاته هذه؟  
إنه يريد أن يكون المال خادماً، لا سيداً.

ويريد أن تتوافر للناس جميع الفرص التي تبعد عنهم مرارة مشاكلهم، وشطف حياتهم، حتى يحيوا الحياة الطيبة التي يرجوها لهم.

وخدمة الناس عند "محمد" مقدسة، ومثوبتها من الله عظيمة وسابعة.  
و "الرسول" الإنسان، البار بالناس، الحريص عليهم - يأمرنا أن يسدى بعضنا لبعض العون - أيًا كان هذا العون.

يقول عليه السلام:

"لا تُحقرنَّ من المعروف شيئاً.. ولو أن تفرغ من دلوك في إباء  
المستسقى.. ولو أن تكلم أخاك، ووجهك إليه منبسط.."

ولقد ذهب إليه بعض أصحابه يوماً آسفين، لأنهم يريدون أن يتصدقاً من  
أموالهم، لينالوا ثواب المتصدقين.. ولكن لا أموال لهم يبذلون منها..

قالوا للنبي:

"يا رسول الله: من أين لنا صدقة نتصدق بها..؟" فقال: إن أبواب  
الخير لكثيرة: التسبیج، والتحمید والتکبیر، والتهلیل، والأمر  
بالمعروف، والنهی عن المنکر.."

ثم قال:

"وتمیط الأذى عن الطريق..

وتسمع الصم..

وتهدى الأعمى..

وتدل المستدل، على حاجته..

وتسعى بشدة ساقيك مع اللھفان المستغيث، وتحمل بشدة

ذراعيك مع الضعيف..

ـ فهذا كله صدقة منك على نفسك.."

تأملوا قوله - عليه السلام - "تسعى بشدة ساقيك مع اللھفان المستغيث،  
وتحمل بشدة ذراعيك مع الضعيف" إنها كلمات حارة مضيئة، تصور حنانه  
الدافق على الناس، وتصور رغبته الجيدة في أن يتبادل الناس المعونة، والمعروف،  
ويعيشوا معًا كالبنيان يشد بعضه ببعضًا.

## انسانيات

و "الرسول" ﷺ كبير الحرص على كرامة الكائن البشري.  
هذا ينهى الذين يساعدون الآخرين عن أن يطلعوا أعمالهم بالمن والأذى.  
فإذا كان العون ماليًا، يأمر أن نبذله في السر.  
وفي كل حالات العون والمساعدة ينهى عن المن، لأن فيه جرحًا لمشاعر  
الذين تلقوا النصرة، والمعونة.  
يقول عليه السلام:

"خابوا، وخسروا.."

"قال أصحابه: من هم يا رسول الله؟.."

"قال: المسيل إزاره خيلاء.."

والمنان بما أعطى..

"والمنفق سلعته بالحلف الكاذب.."

المنان بما أعطى.."

يا محمد من إنسان ذكى الفؤاد، عظيم الحدب.  
إنه يُطهّر العلاقات الإنسانية من كل أعشابها الضارة، وأشواكها المؤذية..  
وإنه ليرفع خدمة الناس إلى مستوى الواجب الذي لا ينبغي أن يحول دونه  
أناية، ولا يشوهه من، ولا يفسده غرور..

\* \* \*

هذه خفقة من خفقات قلب كبير عاش مع الناس في آلامهم، وفيما يرجون  
ناصباً لا يهدأ، يقطنان لا ينام..

أجل - فلقد نامت عينا "محمد" ﷺ كما قال.. ولكن قلبه الناسك اليقطان..  
المتفجر حنائًا ورحمة، لم ينم.. وكأنما لم يكن ينبغي له أن ينام؛ فعاش العمر كله في  
يقظة دائبة، وصَحْوٍ مُفتح.

## — .. ومشاكل الناس عباداته .. —

١٤١

- مع ربه: يذكره ويعبده..

- ومع الناس: يدفع عنهم الكروب، ويعاونهم على شدائ드 الزمان، ويهدى لهم  
للتى هى أهدى وأقوم..

هذا نهج رسول، لباب عمله العبادة والنسك. ومع هذا فهو يعلن أن بعض  
خطوات يمشيها فى حاجة محتاج - أحب إليه، وأزكى لديه من أن يعتكف فى  
مسجده شهراً - يقوم ليلاً ويصوم نهاره.!!

إنه إنسان، احتشدت خصائص الإنسانية وفضائلها فى نفسه احتشاداً بلغ  
الغاية فى القوة، والاتساق.

ثم هو إلى هذا، رسول اختاره الله على علم، وأمده بكل مزايا الاصطفاء.

\* \* \*

وبعد..

فهذه "إنسانيات محمد" .. أتراها قد انتهت عند آخر سطور هذا الكتاب؟؟  
أو تخسب أن هذه الصفحات تزعم لنفسها أنها أوفت على الغاية وشارفت  
المتى؟؟

كلا.. "إنسانيات محمد ﷺ" متراحبة ترحبُ الأفق.. غزيرة كالضوء  
المتشير.. ممثلة كالسحاب التقال..!!

وهذا الجهد الذى أسعفه توفيق الله وعونه، ليس سوى "إيماءة" إلى هذه  
الإنسانيات الحافلة، التى صبغها الله بصبغته الحسنى، وجعلها للناس مناراً عالياً..  
وهادياً.



فمن شاء، فليصطنع لنفسه من هذه "الإنسانيات" قدر مستطاعه، أسوة  
حسنة وقدوة حافزة.

ومن شاء فليتخذ من هذه "الإيماءة" دليلاً للطريقة التي يُحسن أن نفهم بها  
"محمدًا" ﷺ و "إخوة محمد" من الأنبياء المرسلين.



# فهرس

٩ .....	مقدمة
١٣ .....	الفصل الأول : الرحمة مهجته
٥٣ .....	الفصل الثاني : .. والعدل شريعته
٨٧ .....	الفصل الثالث : .. والحب فطرته
١٠٩ .....	الفصل الرابع : .. والسمو حرفته
١٢٧ .....	الفصل الخامس : .. ومشاكل الناس عبادته

## كتب المؤلف

- |  |                                |
|--|--------------------------------|
| ٢- مواطنون .. لا رعايا                 | ١- من هنا نبدأ                 |
| ٤- الدين للشعب                         | ٣- الديقراطية، أبدا            |
| ٦- لكن لا تخروا في البحر               | ٥- هذا.. أو الطوفان            |
| ٨- معا على طريق محمد والمسيح           | ٧- الله والحرية. (ثلاثة أجزاء) |
| ١٠- أفكار في الشمة                     | ٩- إنه الإنسان                 |
| ١٢- إنسانيات محمد                      | ١١- نحن البشر                  |
| ١٤- بين يدي عمر                        | ١٣- الوصايا العشر              |
| ١٦- كما تحدث القرآن                    | ١٥- في البدء كان الكلمة        |
| ١٨- مع الضمير الإنساني في مسيره ومصيره | ١٧- وجاء أبو بكر               |
| ٢٠- أزمة الحرية في عالمنا              | ١٩- كما تحدث الرسول (مجلد)     |
| ٢٢- في رحاب على                        | ٢١- رجال حول الرسول (مجلد)     |
| ٢٤- أبناء الرسول في كربلاء             | ٢٣- وداعا عثمان                |
| ٢٥- معجزة الإسلام عمر بن عبد العزيز    | ٢٥- عشرة أيام في حياة الرسول   |
| ٢٨- خلفاء الرسول (مجلد)                | ٢٧- .. والموعد الله            |
| ٣٠- دفاع عن الديقراطية                 | ٢٩- الدولة في الإسلام          |
| ٣٢- لو شهدت حوارهم لقتل                | ٣١- قصتي مع الحياة             |
| ٣٤- إلى كلمة سواء (تحت الطبع)          | ٣٣- الإسلام ينادي البشر        |
|  | ٣٥- قصتي مع التصوف             |

---

طلب كتب المؤلف من دار المقطم للنشر والتوزيع

---

**Get more e-books from [www.ketabton.com](http://www.ketabton.com)**  
**Ketabton.com: The Digital Library**